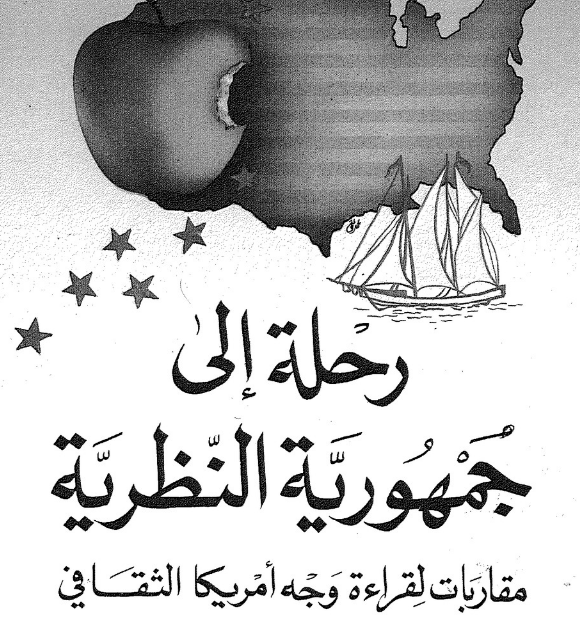
كتاب
الشرق الأوسط



رحلة إلى جمهورية النظرية

مقاربات لقراءة وجه أمريكا الثقافي

الدكتور عبدالله محمد الغذامي

الدكتور عبدالله محمد الغذامي

رحلة إلى جمهورية النظرية

« مقاربات لقراءة وجه أمريكا الثقافي »

الشركة السعودية للأبحاث والنشر

جـــدة : ١٩٩٥


بسم الله الرحمن الرحيم



مقـــدمـــة

(أ)

كلما شبر اختلف عدده

يحكى القزويني في آثاره (ص ٣٦٩) حكاية عن (دير الجودي) ، وهو ديـر مبني على قمـة جبل الجودي وهـو الجبل الـذي استوت عليـه سفينة نوح عليه السـلام ، ويقال إن هذا الدير مبني منـذ زمن نوح ولم تتجدد عمارته ، ويذكر القزويني كلامـاً عن سطـح هـذا الدير فيقـول (زعمـوا أن سطحه يشبر فيكـون عشرين شبراً مثـلاً، ثم يشبر فيكـون اثنين وعشريـن ، ثـم يشبر فيكـــون ثمانيـة عشر ، فكلما شبر اختلـف عدده) .

تلك كانـت صفة سطح الدير ، وتلـك هي حال مقاربـاتي هذه عن أمريكـا ، وما محاولـة شبر سطح الديـر إلا ضرب من القـراءة ، وكل قراءة لنص أو لظاهـرة بشرية أو كونية لابد لها من مـواجهة مأزق يماثل مـأزق تشبير سطح الـدير فـالمقروء يزيـد وينقص ويتبـدل مع تكـرار القراءة . ولاشك أن الانتقال من التصور العيني إلى التصور الذهني ثم التمثل اللغـوي هو تنقل نـوعي تتغير فيه الصـور وتزداد المسافـة ما بين الشيء كوجود عيني ومـا بين الشيء كعبارة لغوية ـ وهي مسـألة يعرفها السميولوجيون القـدامى والمحدثون بدءاً من أبي حـامد الغزالي إلى امبرتو إيكو (الخطيئة والتكفير ص ٤٥) .

وأمريكا بصورتها الواقعية العينية شيء يختلف عنها في صورتها الذهنية في ذاكـرة المتصور لها ، وهـاتان الصـورتـان تختلفان عـن ما يسكـن في النص اللغوي كتعبير وتمثل لما هو قار في الذهن .

وها أنذا بعد كتابة ست وثلاثين مقالة عن أمريكا أشعر بحاجة إلى كتابة ست وثلاثين أخرى أقول فيها غير ما قلت ، وأزيد فيها وأنقص منها مثل حال سطح الدير وشابريه . فاللغة البشرية لم تبلغ الحد الذي به يتطابق التعبير مع الصورة الذهنية ، هذا عيب في اللغة لازم نشأتها وصاحب وجودها حتى صار ميزة في الخطاب اللغوي ظهر منها الخطاب الأدبي والتعبير المجازي ، وسمح بولادة الخيال وتنامي الشعرية والسردية في لغة البشر .

(ب)

في عام ١٩٧١ م ذهبتُ إلى بريطانيا للدراسة ، وكنت قبل ذهابي من مدمني الاستماع إلى إذاعة لندن ومن مدمني القراءة في كتب الرحلات والجغرافيا وهذا جعلني أعتقد جازماً أنني أعرف الانجليز معرفة أكيدة. وبعد مرور شهر على إقامتي هناك أدركت أن معرفتي السابقة غير صحيحة ، وأنني الآن عرفت الانجليز بعد أن شاهدتهم وحادثتهم .

ولكنني بعد ستة أشهر أخذت مرة أخرى أخطىء نفسي وأصحح مفهومي عن الشعب الانجليزي .

ثم انضممت إلى الجامعة بعد أن قضيت سنة في دراسة اللغة والسكنى مع عائلات انجليزية . وهناك في الجامعة ـ ومع الاختلاط بالطلاب ـ رحت أمسح الصورة السابقة وأضع بدلاً عنها صورة أخرى أحسست أنها أصدق وأدق حول معرفتي بالانجليز . وظننت أنني قد وصلت أخيراً إلى إدراك حقيقة ذلك الشعب ، غير أن السنوات كانت تتالى عليَّ في بريطانيا لتواصل التعديل والتبديل في صورة الانجليز في ذهني ، ويتأكد لي مع كل تعديل أن التصور السابق لم يكن صحيحاً .

وفي عـام ١٩٧٨ م توجهـت إلى مطار هيثـرو حامـلاً كتبي وأوراقـي لأعود إلى بلادي وفي رأسي حكمـة راسخة وهي أنني سأظـل أعدل من تصوراتي وأن الشعوب مثل سطح دير جبل الجودي كلما شبروه اختلف.

لهذا فإن القراءة ليسـت سوى مقاربة تشريحيـة تهدف إلى سبر أغوار المقروء واستكشاف بواطنه دون أن تدعي لنفسهـا وصول غاية لن تصل إليها . إذ كلما شبرنا المقروء وكلما سبرناه اختلف .

لقد كانت الثقافة الشفاهيـة أقرب إلى واقع الأشياء حيث كان المبدع الشفاهي يغير نصه ويعدله في كل مرة يروي فيها القصيدة أو الحكاية. نص متغير عن واقع متغير .

أما الآن فالمكتـوب ثابت والواقـع متغير . وهذا فراغ إبداعـي رهيب تـواجهه اللغـة وتـواجهه الثقـافـات . (وكلما شبروه اختلف) . وهـل بإمكان أحد اليوم أن يكتب تاريخاً للبشر ؟

لقـد ارتبطت الأحـداث بالتغير لا الثبـات ، ومـا كتبه ابـن الأثير في كتابـه (الكامـل) عن أحـداث سبعة قـرون من تـاريخنا يعـادله اليـوم أحداث سنة واحدة . والـذاكرة التي كانت تعي وتستوعـب كل هاتيك القرون لم تعد اليـوم بقادرة على استيعاب ما يتـلاحق من متغيرات يُنسي بعضهـا بعضا . حتـى لقد ارتبـط الفكـر البشري بنشرات الأخبار ومـا حدث قبل عام صار نسياً منسيا ، وصار زمنا قديما .

لا وجه للمـؤرخ ولا للتاريـخ ، انقرض فـن التاريـخ . وحل محلـه إعـلام شره سريع مهـووس . وصار المرئي بـدل المقروء والشـاشة بـدل الكتاب .

هذه هي الثقافة البصريـة أو ملحمة العين كما يقول دي سيرتو حيث

يتحرك النص حركة دائبة أمام بشر ثـابتين . وهذه هي حال كل عائلة معـاصرة يركنـون ساكنين في كـراسيهم ويتحـرك العالم ــ وحده ــ على شاشـة التلفاز من أمـامهم ، قارىء ثـابت أمام نـص متحرك . وكلما شبروه اختلف .

(جـ)

تأتي أمـريكا على أنها فكـرة وليست مجرد مكـان ، ولقد كـانت حلماً بشرياً قديما ، وكلنا قد قرأ أحلام الرحالة والجغرافيين عن جزر ضائعة ، وعن جزر تنبت فيها النساء ، ويتقاطر سيلها ذهباً وياقوتا .

وها هي أمريكا جزيرة كانت ضائعة فهى حلم بشري وهي (نظرية) في الثراء والحرية والخلاص .

هى مصطلح لغوي مجازي ـ وهي خيال بهيج ، كلما شبروه اختلف ، وكلما اقتربوا منـه ابتعد . ويظل الحلم الأمـريكي (American Dream) مطلباً بشريـا طلبـه المهـاجـرون الأوائل ، ومـازال يطلبـه النـاخبـون المعاصرون في حملات رؤسائهم وفي وعودهـم البيضـاء .

جاءت أمريكا في آخر التاريخ وفي آخر معاجم اللغات والحضارات ، فصارت أغـض الأمم وأشـب الامبراطوريـات . مثلما جاء مكـانها آخر الأماكن ، وهو مـوقع جغرافي أعطاها فرصة عالميـة لأن تكون آخر من ينام من البشر . وبعد أن تهجع كل قـارات العالم يأتي دور أمريكا لتنام قريرة العين حيث اطمأنت على العالم القديم وتأكدت أنه هاجع في نومة عميقـة كما تطمئن الأم على أطفـالها أو يطمئن الفتـى البـار على جدتـه العجوز .

وهذا لا يعني أن أمريكا قد صارت الابن البار والبنت الصالحة التي لا تقصر في حقوق والديها ، بل إنها كيان بشري مثل سواه من البشر ، ولكل أمة من الأمم جنونها تماماً مثل الأفراد ولها هوسها ووساوسها ومراهقتها . غير أن جنون أمريكا ومراهقتها تأخذ صورة مختلفة لأنها تملك لغة مختلفة ووجهاً مختلفاً ، له من القوة والسلطان ما يجعله وجهاً عالمياً ولغة عالمية . ولذا فإنه كلما جنت أمريكا جن معها العالم وكأنها بذلك خاتمة لرواية من روايات أجاثا كريستي حيث تعدل النهاية كل أحداث الرواية وتجرها وراءها وإن تقدمت عليها .

هذه هي أمريكا خاتمة الرواية العالمية وآخر المواقع الجغرافية ، وحينما تكون هي غرباً يكون العالم كله شرقاً لها ، وكله يصب فيها وينحدر نحوها مثل انحدار الشمس الأبدي نحو الغرب .

لذا تكون قراءتنا لأمريكا هي قراءة لنا من حيث إننا نرى أنفسنا في هذا الآخر ونقيس ذاتنا من خلال التعرف على آخر ليس لنا ولكنه فينا ومن حولنا .

(د)

أود أخيراً أن أسجل شكري للدكتور نبيل خوري الملحق الثقافي الأمريكي في الرياض (سابقاً) الذي كان وراء رحلتي هذه ، وأشكر وكالة الإعلام الأمريكية التي مولّت زيارتي إلى الولايات المتحدة . وأذكر بالتقدير الشديد المستر سي باتريك كوينلان ــ أو أبو أحمد كما اتفقناعلى هذه الكنية ـ الذي رافقني لمدة ثلاثين يوماً عبر تسع ولايات ، وكان لثقافته الواسعة وخبرته الطويلة كسفير لبلاده في الشرق الأوسط

كان لـه ولخبرته فضل كبير علـيَّ إذ عرفت منـه أشياء دقيقة عـن حياة الناس والمجتمع في أمريكـا ، وكانت رحابة صدره ورجـاحة تفكيره سبباً رئيسياً في استمتاعي بهذه الزيارة .

وأشكر الصديقين جاسر الجاسر وعلى العميم اللـذين حرضاني على الكتابة عـن زيارتي هذه ، ولقد ترددت كثيراً وكـدت أصرف النظر كلياً عن فكرة الكتابة لولا تحريضهما المستمـر ولولا المتابعة المخلصة والاهتمام الكبير من الأخ علي العميم ـ المحرر في جريدة الشرق الأوسط ـ مكتب الرياض .

وأشكـر جريـدة الشرق الأوسط على نشرهـا مقـالاتي هذه على سبـع وثلاثين حلقة ، وأقدر للصديق الدكتـور محيى الدين اللاذقاني ـ المشرف على الثقافة في الجريدة ـ عنايته الخاصة بمقالاتي هذه .

أما وقد فرغت من كتابة هذه المقالات (المقاربات) فإنني أشعر أني قد استمتعـت بكتابتها ومعـايشتها لحظـة بلحظة ، وأرجو أن أكـون قد وفقت في تقديم متعة قرائية لقارئي مقارباتي هذه .

وتكتمل صـورة الشكر والامتنـان مع الصديـق الأستاذ عبـد المحسن عبـد العزيـز العكاس العضـو المنتدب في الشركـة السعوديـة للأبحـاث والتسويق الـذي تبنى مشروع نشر هذه المقاربات في كتـاب ، فله مني خالص الامتنان والتقدير .

والحمد لله أولاً وآخرا .

عبد الله محمد الغذامي

الرياض ٢٨/ ٤/ ١٩٩٤

١ ـ غـرب الغـرب

١ ـ ١ « إن الحكمة الإلهية جعلت السلطة الكـونية ، التي كانت في بداية الدنيـا في المشرق ، تنتقل شيئاً فشيئاً نحو الغرب لتنـذرنا باقتراب أجل العالم ، لأن مجرى الأحداث قد وصل إلى حدود الكون » .

هكذا يستنطـق أمبرتو إيكو أحـد شخـوص روايتـه (اسـم الـوردة ص ٥٠) ، وكأنه يعلـن عن خوفه من الغرب ، حيـث يكون الغرب علامة على النهاية ونذيراً بالأجل .

لقد ظهـرت رواية إيكـو عام ١٩٨٠ م بإيطـاليا ثـم أخذت الـرواية طريقهـا باتجاه الغـرب في ترجمات أدبيـة ، وفي شريط سينمائي . لقـد كانـت تحاكي مسيرة الشمس مثلها مثـل السلطة الكونية ، ومثلهـا مثل رحلـة الضعـائن الجاهليـة في مسارهـا الكـوني من الشـرق إلى الغـرب (حسب دعوى أحمد كمال زكي في كتابه الأساطير) .

وبعد عشر سنوات من تفوه شخصية إيكـو بذلك الكلام عن مصير العالم بعـد أن تولى الغرب زمام السلطـة ، بعد عشر سنوات مـن ذلك التحسس جـاءنا جـورج بوش معلناً عـن (النظام العـالمي الجديد) . حيث تتسلم أمريكا قياد العالم ، بعد انهيار آخر ممالك الشرق (الاتحاد السوفيتي) مما جعل آخر بقعة في غربي الكرة الأرضية تمتلك الكون .

وهكذا يصبـح العالم في يـد الغرب الخالـص في يد غـرب الغرب ، ويتراجع الشرق ليكون مجرد كينونات جغرافية متشظية سياسياً واجتماعياً وثقافياً . وتكون القوة الوحيدة والقدرة الوحيدة هي غرب الغرب .

وتحل اللغة الأمريكيـة في صدارة كل اللغات ، حيـث صارت لغات العالم على الشرق من أمريكا ، بما في ذلك اللغة الإنجليزية التي صارت هي الأخرى لغـة شرقية تابعة ــ ثانوية ــ منصاعة لسيدة العـالم بنظامه الجديد ، حيـث المصطلح المتضمن ليـس للقوة والسلطـة ـ فحسـب ـ ولكن أيضاً هو المصطلح المتفرد والمتنفـذ الذي يريد فيتبعه العالم ، وإذا لم يرد فلا شيء يصير خارج إرادة السيد .

نعم . . . لقد أصبح العالم كله شرقاً وأمـريكا وحدها هي الغرب . والسلطــة الكونيـة تنتقـل حسب قـاعـدة التحول الأزلي مـن شرق إلى غرب ، ويكون النظام الجديد هو أبانا الذي . . . . .

١ ــ ٢ قبـل خمسمائة عـام (١٤٩٢م) راح البحار الأسبـاني تـاركـا الشرق خلف ظهره في نية البحث عن شرق الشرق (عن الهند) فكان حظـه أكبر من حلمـه فاكتشـف غـرب الغرب ، وجـدها . . . وجـد أمريكا . لأنه سار مثل الشمس ومثل السلطة ـ فوجدها .

لقد فتح الطريق للسلطة الكونية فأنقذها من ورطتها مع نفسها حينما ضاقـت بها بقعتها الأوربية ، وبدأت عمليـات تفريغ السفينـة الأوربية والتخفيف من شحنتها المكتظة ، وصارت أوربا تصب زوائدها وجياعها وحالميها وطلاب الذهب والحرية والخلاص .

تصبهم هناك حيث الحلم الأمريكـي وحيث غرب الغرب ، وحيث الموعد مع السلطة .

وفي عام ١٩٩٢ م بعد خمسمائة عام تلتفت أمريكا شرقاً لتقول بالنظام الجديد . وتقول للشرق إنك شرق وأنا ـ وحدي ـ الغرب .

١ ـ ٣ هناك في غـرب الغرب ينتصب تمثال الحرية ، كتلة حـديدية راسخة الأقدام ، شاخصة العينين ، تحرس باب الغرب .

وفي مقابل ذلـك يتجمهر طلاب جامعة بكين في ميـدان العاصمة ، يتظاهرون وفوق أعناقهم نماذج صغيرة لتمثال الحرية .

هنا في شرق الشرق تتراجـع اللغة الشرقية لتترك المجـال للغة الغـربية لتعبّر عـن حلم هـؤلاء الشباب الشرقيين الـذيـن لم يجدوا مفردة صينيـة تتكلـم عنهم ، فـاستعاروا مـن النظـام العالمي الجديـد إشارة تتكلـم ، وعلامة تصرخ لتقول إن الشمس في غرب الغرب، وإن الحرية هناك .

وبما أن الحرية غـربية ، وبما إنها راسخة القـدمين هناك على مـدخل نيويورك فإن اللغة التي تلقاها الشباب الصينيون كانت بضع رصاصات لكل واحد منهم ، أصابت من أصابت ، ومن لم تصب فله هراوات ، وبعض ركـلات . وسلامـات لمن كان في ساقيـه فضل قـوة أوصلته إلى مأمنه دون أن يلحظه جار أو زميل . وسلامات لمن حيا ولمن مات .

ولكـن تبقى السيـدة في غرب الغـرب تقـرأ جرائد نيـويورك حيـث لاحظت صورها فوق أيدي الشباب الصينيين .

ولا أريد أن أهين السيدة فأكشف عن همهمة دارت بين شفتيها حيث كانت تسأل عن حقوق الطبع وحقوق التوزيع وعن نصيبها من ذلك . ويا تـرى من سمـح للصينيين بأن يسرقوا التكنـولوجيـا الغربيـة ، ومن صدر إليهم صور السيدة .

آسف لم أكن أقصد إسـاءة الأدب ، ولا التطاول على السيدة . وإن كان ظني هذا غير صحيح فإنني أعتذر منك (يا أبانا الذي . . .) .

٢ ـ بجماليون الثانية

٢ ـ ١ يقول دي سيرتو في عبارة طريفة ولاذعة إن الثقافة مثل الفلوس تتجه إلي جيوب الأغنياء .

وكذا راحت الثقافة الانسانية تشق طريقها من الشرق إلى الغرب ، وإلى غرب الغرب . تسير مع المهاجرين والفارين ولعل العقل البشري كان يفر من داره القديمة إلى دنيا يتجدد فيها ويعيد كتابة نفسه وتاريخه، بعد أن يمل القعود في الخمول والركود والمعتاد .

ولا ريب أن الخيال الإنساني كان يمارس تطلعاته إلى جزيرة بعيدة هناك ، وراء البحار ، تعوم وسط المياه فتظهر حينا وتغيب أحيانا . يراها بعض المحظوظين ، فيجد فيها النساء الحسناوات والفواكه اللذيذة والمجوهرات النادرة ، حيث حصاها ذهب وترابها مسك ، ونعيمها دائم . قد يكون اسمها واق الواق وقد يكون (يورا) كما عند القزويني. وقد تكون جزائر بأسماء وصفات ينطلق الخيال في صناعتها وصياغتها . وعند القزويني أيضاً جزيرة سماها جزيرة النساء ، لا رجل معهن فيها ، يلقحن من الريح ، ولا يلدن إلا نساء مثلهن .

وكذا هي كل الأدبيات الإنسانية تحلم وتحلم بجزيرة خلف البحار (جزيرة عند مغرب الشمس) .

٢ ـ ٢ هل أمريكا هي الجزيرة التي حلم بها العالم ؟ . . هل هي الحلم البشري البعيد هناك ؟

لا شك أن المهاجرين من الجياع والمضطهدين وطلاب الحظ كانوا

يتجهون غرباً باتجاه حلم عميق بوطن يفتح لهم أبواب الفردوس الدنيوي بكل ما فيه من حرية ومن ثراء .

ولكن الحلم ــ أي حلم ـ لا يظل حلماً إلا إذا تمنع على التحقق ، ولذا فإن (جزيرة النساء) عند القزويني تختفي وتتوارى حينما ذهب وفود ملك الصين باحثين عنها . وتورط التاجر الذي روى الحادثة وظهرت قصته وكأنها خيال لفكر مجنح وليست مغامرة لفاتح جريء .

واختفاء جزيرة النساء هو الذي يجعلها حلماً ترويه الإنسانية وتمارس تطلعاتها الهائمة من خلاله .

أما لو تحقق الحلم . . . فماذا يحدث لهذا الحلم . . ؟

لقد جرب شاب قبرصي هذا التحقق حيث نحت تمثالاً أبدع في نحته وصياغته فجاء جماله خارقاً وأخاذاً . ووقع الشاب في غرام مع تمثاله ، وتمنى أن يمتلك التمثال حياة لكي يتزوج منه . ومن سوء حظ الشاب فقد تحققت رغبته ، وسرت الحياة في التمثال وصار كائناً بشرياً حياً . ومن هنا جاءت خيبة أمل الشاب لأن فتاته هذه صارت مثل البشر تمرض وتغضب ويعتريها ما يعتري غيرها من ظروف وعلل ونواقص . وضاع الحلم والجمال لأن الواقع لا يقوى على كمال متوهم وجمال مفترض . وضاع الحلم ، وصارت (بجماليون) رمزاً لضياع المنشود وانكسار الجرة .

أو تكون أمريكا هي بجماليون الحضارة البشرية ، هل هي الحلم الذي تحقق فتحول من خيال أسطوري إلى واقع بشري ؟

في النظام العالمي الجديد مجال للحلم ومجال للجواب . خاصة لو سألنا عنه شعب الصومال أو شعب البوسنة . أو لو سألنا عنه في

شـوارع واشنطن العـاصمـة في جورج تـاون أو حتـى في تلك المحيطـة بالبيت الأبيض .

لقد كانت بجماليون جميلة وخارقة وأخاذة . لقد بلغ جمالها حداً يخلب الألباب . ولقد خلبت لب الفنـان القبرصي ، ناحت التمثال . ولكنها بعد أن تحولـت إلى واقع فعلي تـلاشت مثـل أي كائن بشري يـدخل في المتغير الظرفي فيرتد ـ أخيراً ـ إلى أرذل العمر .

والنظام العالمي الجديـد تمثال جميل نحته فنـان صانع ماهـر . وعشق الفنان تمثـاله وهام فيـه إعجاباً وتعلقاً . وتمنـى له حياة فعليـة . وهكذا انطلق التمثال ليعيش بين الناس .

٢ ـ ٣ ما هو مصير تمثالنا الجميل . . . وهل هو بجماليون الجديد ؟

في الحملة الانتخابية الأمريكية تستمع إلى الخطب والمناظرات في أمل أن تجد خبراً عـن التمثال ، عـن النظام الجديـد ، فيصـدمك الانتظـار ويروعك الغياب حينما لا تسمع ذكراً لذلك الجديد .

مـا بالـه لا يرد على ألسنـة الخطبـاء . . . أليس هـو الجديد الـذي تطلعنا إليـه ؟ أليس هو الحلـم الذي من أجلـه ارتحل الشرق إلى غرب الغرب ؟ ألم نفـرح بتحطيم آخـر مملكات الشرق لكـي يبزغ فجـر هذا الجديد .

مـا بال النحـات لا يحكي عـن تمثـاله . ربما يكـون غرب الغـرب مشغولاً بنفسه عن كل ما هو مشرق . وهنا يكون النظام العالمي الجديد وجبة فطور قدمتها الضيافة الأمريكية الكريمة على شرف الشمس الآتية من الشرق ، وانتهت الحفلة بعد ذلك .

ولكن الشرق مـازال جائعـاً ومازال مضطربـاً ومازال يعـاني من الجوع والحرب والخوف . ولم يزل الشرق تـائهاً . ولقد توجـه بكل ما فيـه وما عليـه نحو الغـرب ونحو غـرب الغرب ، وقـد سال لعـابه على ذلـك الفطور الأمريكي اللذيذ .

ترحل الشرق بـدءاً من أهرامات مصر وسور الصين ، وكـل ما ورثه الآخرون عـن أسلافهم وحطموا مـن أجل ذلك كـل العقبات ، بما في ذلـك جدار بـرلين الـذي كسروه إرباً لكـي تسير قـوافل الشرق نحـو الغرب . وحتى البيتزا الإيطـالية والفلافل العربية التـي فرت من عقالها لتتبهر بالنكهة الأمريكية وتمارس حلمها مثل غيرها في جزيرة الأحلام ، والنظام العالمي الجديد .

٢ ـ ٤ يحزننـا أن ينسى الفنـان فنه ، وأن يتجاهـل النحات تمثـاله . ويحزننا أكثر أن ينشغل المبدع عن إبداعه . وأن تأخذ المبدع دواعي الحياة ومشاغل الوظيفـــة بعـيداً عن نصه الجميل وعن عمـل صار انجازاً لهذا المبدع وعلامة عليه .

صحيح أن بعـض المبدعين يتأثر كثيراً مـن ملاحظات النقـاد . ولقد رأيت نعـوم تشومسكـي يصف التمثـال بأنـه منافـق . وقال إن سيـاسة أمريكا والنظام العالمي الجديد مصـابان بما سماه النفاق الأخلاقي . لأنه ينظر بعين واحدة ويزن بكفة واحـدة وليست بقع الأرض عنده على حد سواء . ولذا فإن شمسه شموس ، وكلمته كلمات . بعضها يصلح هنا وبعضها يصلح هناك .

وتتغير عنده الأسماء والأفعـال والرغبـات ، فيكون النظـام عالميـا في أماكن . وبإزائها مواضع أخر تظل خصوصية ولا تحتاج إلى (الجديد) .

هذا مأخذ يقول به النقاد . وهم بذلك لا يوجهون اتهاماً ولكنهم يصفون أفعالا .

إن السلطة الكونية وهي تتجه إلى الغرب فهي تجعل الغرب سيداً كونيا . ومن صفة السيادة العدالة ، وكما يقول الجاهلي : وليس زعيم القوم من يحمل الحقدا .

إن من أخذ البيتزا من مبتكريها فأضاف عليها صفات المهارة لهو طباخ ماهر .

وكذا من أخذ (بجماليون) من الفنان الشرقي فإنه فنان يواجه تحدياً ابداعيا بجعل تمثاله الجديد يحمل اسماً خطيراً بما إنه يتصف بصفة (النظام العالمي الجديد) . فهل يقود العالم إلى أجل نهائي بما إن قدر السلطة الكونية أن تجد نهايتها في الغرب ، كما تقول شخصية امبرتو ايكو .

أم يا ترى يستطيع المبدع أن يكتب نصاً لم يسبق إليه ؟

٣ ـ الضمير المكشوف

٣ ـ ١ يقول الشاعر الألماني بريخت :

أفضل شيء في أمريكا
هـو أننـا نفهمها . . .

تلك هي أمريكـا كتاب مفتوح قابل للقراءة ـ وللفهم ـ وللتفسير . وكذلك هي : قابلة لسوء الفهم ولسوء التفسير .

إنها أشبـه ما تكـون بالنـص الملحمـي ، الذي ينطـوي على بساطـة ظاهرية ، وعلى تعقيد داخلي . ينظر فيه الناظر فيتسلى ويتوهم السهولة ومن ثم السيطرة عليه . ولكنه نص مضطرب متملص وزئبقي . يعطي كل ناظر بعض ما يريد ويخفي عنه أشياء .

ولكنها ـ مع ذاك ـ كتاب مفتوح قابل للفهم ولسوء الفهم . مثل أي نص إبداعـي ينطوي على المجاز وعلى الضمني والمضمر ، ومـا أكثرهـم أولئك الذين حـاولوا قراءة هذا النص الأمريكـي العجيب . وكم وثقوا بصدق تصوراتهم وصحـة تأويلاتهم ، منذ قراءة ماوتسي تـونج المشهورة ونبـوءته بتحطـم العملاق مـن الداخـل . ولكن العمـلاق لم يزل يـزداد عملقة وجبروتا . إنه مثل كتاب مسمـوم يقتل قارئه ولا يموت هو ـ كما تقول حكاية ألف ليلة وليلة عن الحكيم دوبان .

هل صـارت أمريكـا هي الكتاب العـالمي المفتوح ؟ مثلما هـي الحلم الكوني . هل ظلـت مخبوءة على مدى القرون لكـي تظهر أخيراً وتتحول إلى فرانكشتاين الذي ينقلب على صانعه ويدمره ؟

هل هي كتاب مسموم فعلاً ؟

٣ ـ ٢ فلننظر في صفحة من أوضح وأبرز صفحات هذا الكتاب . تلك هي الصفحة المتكشفة لنا في مناظرات المرشحين لرئاسة الجمهورية .

إن هذه واحدة من أوضح صفحات أمريكا لأن المرشحين يحرصون على كشف ما لديهم وإعلانه من جهة ، ولأنهم يحرصون على قول ما يريده ويطلبه جمهورهم العريض . وهم فيها لا يخاتلون ولا يخادعون ولا يتهربون . إنهم يعلنون بوضوح وجلاء عما في نواياهم وعما في رغبات جمهورهم . نعم قد يكذبون . ولكن كذبهم هنا هو كذب الكشف والتصريح وتقديم الوعود المرغوبة ، وليس كذب الإخفاء والتستر والتمنع .

وهذا يختلف عن حال سياساتهم حينما يمتلكون زمام السلطة . إذ هناك تتغير الحالة وتصبح دواعي الحكم ومصالح السلطة أكبر وأقوى من رغبات الجمهور . بل إن رغبات النخبة وقوى الضغط هي التي تدير الحكم ، مما يعقد صفحات الكتاب ويخفي معالمها .

ولذا فإن اختيارنا لصفحة المناظرة الانتخابية يجعلنا أمام أكثر الحالات وضوحاً وجلاء .

٣ ـ ٣ إن كانت المناظرات الانتخابية كشفاً لما في ضمير أمريكا ، فلنقف عند هذا الضمير المكشوف لنقرأ فيه حقيقة (النظام العالمي الجديد) . هذه الكلمات الثلاث الجميلة . هذه الكلمات التي أبتدعتها أمريكا لنا منذ ثلاث سنوات . ثلاث كلمات في ثلاث سنوات ، ما هو حالها في الضمير الأمريكي ؟

في المناظرة الثانية للمرشحين الثلاثة لعام ١٩٩٢ م حضر في القاعة مائتان وتسعة من المشاهدين. وقدم كل واحد منهم سؤالاً. ومن بين مائتين وتسعة أسئلة جاء سؤال واحد وحيد عن (النظام العالمي الجديد).

سؤال واحد فقط ، أقل من عدد مفردات الشعار . وأقل من أي حساب للنسب .

بينما في المناظرتين الأولي والثالثة لم يرد أي سؤال عن ذلك الطفل الجميل ذي السنوات الثلاث .

جاءت أسئلة عن قضايا المرأة والملونين والمعوقين وعن البيئة . وأخرى عن العاطلين وعن التعليم وقضايا الاقتصاد والضرائب. وتكررت هذه من الجمهور ومن الصحفيين ، وتحمس المرشحون الثلاثة في الإجابات وقدموا وعوداً تفرح كل حالم بمستقبل أفضل .

ما عدا طفلنا الذي تجاهله أهله وصار كاليتيم أو هو في طريقه إلى اليتم والنفي ، والتشرد في عواصم الشرق وأرياف الغلابا والجياع والمضطهدين ، في مشارق الكرة الأرضية .

كم كنت أود أن لو عرفت ذلك السائل أو السائلة التي سألت عن طفلنا الحبيب . لو عرفتها لقلت لها ما قاله امرؤ القيس لامرأة الجبل (وكل غريب للغريب نسيب) .

أنتِ يا من تفردتِ من بين الجميع في همومك في أحاسيسك ، هلا تقدمتِ إلى كرسي الرئاسة لتعطيها الحكمة وصوت الضمير .

هذا الضمير الضائع بين هموم البشر . هذا الضمير الذي مازال يتذكر طفلاً صغيراً لما يشب عن الطوق بعد .

لكم حزنت لصوت السؤال الفريد ، وأحسست بغربته وعزلته . وأحسست أن الشرق كله لا يعدل سوى واحد من مائتين وتسعة .

٣ ـ ٤ ذاك هو وضع السؤال . فماذا كان الجواب . . ؟

تكلم روس بيرو عن الحرية والرأسمالية ووهبهما للعالم ، أي للشرق. واحتفظ للغرب (أي لأمريكا) بما سماه بالاقتصاد العظيم كأساس للقوة العظمى . ولم يتفوه قط بمصطلح (النظام العالمي الجديد) . وكأنه مصطلح محرم لا يجوز ذكره أمام الناخبين . ربما لاعتقاده بأن الناخبين لا يحبون هذه الكلمات المحرمات . أو لعله اعتبر هذا المصطلح من خصوصيات جورج بوش التي لا تعني أحداً سواه .

أما كلينتون فقد انطلق من فكرة (القوة العظمى) تلك القوة التي ستمنح العالم الحرية والديمقراطية . ولم يذكر الرأسمالية . وترك هذه الأخيرة لتكون حقاً خاصاً من ممتلكات المليونير روس بيرو . ولكنه شاطر خصمه في كلمة (القوة العظمى) تلك التي تسود وتسيطر وتهب المحتاجين كلمات حسان هي الحرية والديمقراطية ، يشبع منها الجائع ويتشافى بها المريض ويتعلم الجاهل ، و . . . . و . . . إلخ . ولم يذكر الكلمات المحرمات مثله مثل بيرو .

أما جورج بوش فإنه لم ينس أن يشير إلى أن ثلاثاً وأربعين دولة شرقية قد تحررت ، وقال بحاجة العالم إلى الحرية والديمقراطية (أيضاً) . ثم قال إن أمريكا سوف تختار من سيكون زعيم العالم الحر .

٣ ـ ٥ من تلك الإجابات يصبح (النظام العالمي الجديد) ، أكثر وضوحاً ، وتصبح دلالته أقرب إلى عقولنا نحن الحالمين بالجديد

وبـالنظام ، نحـن الشرقيين الـذين أصبحنـا بضاعـة كـاسدة في سـوق السياسة الغربية وشروطها الانتخابية ، ودواعي ضميرها المعلن .

إن دلالات (النظام العـالمي الجديد) هـي الحرية والـديمقراطيـة . وهذا يجعل المصطلح مجرد رديف لغوي لكلمات قـديمة . وهنا تتلاشى صفة (الجديد) إذ لا جـديد في رغبة القوة العظمـى ، أي قوة عظمى بأن تمنح الآخرين الحرية والديمقراطية .

لقد ترددت كلمات الحريـة والديمقراطية بوصفهما رقية سحـرية تقدم للشرقيين ، ترددت الكلمتان على ألسنة كل الرؤساء الأمريكيين ، تماماً مثل تـردد شعار (المهمة الحضاريـة لأوربا) . وهو الشعار الـذي من خـلاله تـوجهـت الجيوش الأوربيـة شرقـاً وجنوبـا تنفيـذاً لتلك المهمـة التاريخية التـي تحملتها أوروبا وحملتها على عاتقها لمدة تمتـد إلى أكثر من قـرنين . فلما تعبـت مـن الحمـل وثقـل بـه كـاهلهـا أمـرت جيـوشهـا بالانصراف مع الشمـس إلى الغرب ، ونسيت مهمتها الحضـارية . بل إنها صارت تخجـل من تلـك المهمة وتتفـادى ذكرهـا والحديث عنهـا . مثلما تتفادى العـاهرة الحديث عـن زمان فجـورها بعد أن تتـوب بسبب بلوغها سن اليأس .

وفي المقالة القـادمة استكمل القول عن طفلنا اليتيـم وعن مصير هذا المشرد بين القارات والأمم .

٤ ـ العجـز الإبـداعـي

٤ ـ ١ هل (النظام العالمي الجديد) نظام جديد . . . ؟

أم هل تعددت الأسماء والموت واحد . . . ؟

إذا كانـت أوربا الاستعمارية قد وضعـت شعار (المهمـة الحضاريـة لأوربـا) عنوانـاً جميلاً لمغـامراتها الاستعمارية في أفريقيـا وآسيا ، فـإن جحافل أوربية أخرى كانت تجعل الـدين والهداية ورسالة الله سبباً لغزو الشرق الأوسـط مـن جهة ، ولغـزو الهنـود الحمـر من جهـة أخـرى . وكانت روسيا العظمى من قبل تفعـل مثل ذلك . ثم هدى الله الروس فصاروا يغزون العـالم من أجل العمال المساكين ، الذين تعشـق موسكو سواد عيـونهم فترسل من أجلهم الـدبابات تدك كـل ما هو أمامهـا من عمران ومن بشر ، حتى إرادات الشعوب المعلن منها والمضمر لا يمكن للجيـش الأحمر المضفر أن يغـادر لها صغيرة أو كبيرة إلا ويكتسحهـا ، كـل ذلـك مـن أجـل العمال المساكين ، ومـن أجـل العـدالـة والحريـة الإنسانية ومكافحة الامبريالية .

إذن . . . لا جـديـد في (النظـام العالمي الجديـد) ويتسـاوى هـذا المصطلح مع المصطلحـات الأخرى . تلك الكلمات التي تتعـدد وتتنوع ظـاهريـاً ، ولكنـه تنوع ينتهـي إلي نهايـة واحدة : هـي عـلاقة القـوي بالضعيف .

والقوي هـو مالك اللغة وقـائد الجيوش وزعيم الرغبـات . ولابد أن تسير الريح بإرادته .

٤ ـ ٢ (إنهـم لا يستطيعـون تمثيل أنفسهم ولذا يجب تمثيلهـم) هذا ما قاله كارل ماركس عن العمال ـ كما ينقل ادوار سعيد في مقدمـة كتابه (الاستشراق) .

وفي الجهة المقابلة يقول جورج بوش : (إن أمريكا سوف تختار زعيم العـالم الحر) . قال ذلـك في المناظـرة الثـانية كجـواب على سؤال عـن النظام العالمي الجديد .

زعيم العالم الحر لا يختاره العالم الحر ، وإنما تختـاره أمريكا فحسب . إنهم لا يستطيعون تمثيـل أنفسهم . ولا يعـرفون أن يختـاروا زعماءهم ، ولذا يجب أن تمثلهم أمريكا ، وأن تتكلم وتفكر بالإنابة عنهم . ومالهم وما لهمـوم التفكير ومعضلات الاختيـار . إن التفكير يصيب الشعـوب بالصداع ، وليس كالنظام العالمي الجديد دواء لصداعات العالم وهمومه .

كذا يتكلـم ماركس وبوش بلغـة واحدة . تختلف مفـرداتها ، ولكن دلالالتها الضمنية واحدة .

إنها علاقات القوي بالضعيف .

وإذا ما جئنا إلى الحرية والديمقراطية ، فإننا نجد ثلاثاً وأربعين دولة شرقية نـالت حـريتها ، وتصـدع الاتحاد السوفيتـي كنتيجة لهذه الحريـة المكتسبة ، بعـد احتلال طويـل وصارم . ولكـن أية حريـة هذه ؟ وأي مكسب نالته هذه الدول المقهورة ؟

لقد نالـت القرار السياسي الذي يتفـاخر به النظام العـالمي الجديد . وقـدمت للغـرب خـدمـة عظيمة إذ جعلتـه يـرتـاح من حـرارة الحرب البـاردة، لينام قـرير البـال على سرير وثير تعـارفنا على تسميتـه بالنظـام العالمي الجديد . ولكن ماذا بعد ذلك ؟

هل تكفي الحرية السياسية لخلق السلام والنظام في الشرق . . ؟

هل الحرية السياسية تعني بالضرورة الحرية الاقتصادية والاجتماعية ، وحرية الضمير والإرادة ؟

أم هل سيتحول المقهور من سيد إلى سيد ، ومن قيد إلى قيد .

إن كان كارل ماركس يقول بضرورة تمثيل المقهورين ، فإن النظام الجديد يقول بضرورة زعامتهم . ويظل المقهور عبداً مملوكاً لسيد يملك اللغة ويملك القرار .

ماذا سيحدث لهذه الثلاث والأربعين دولة ؟

هل ستظل حرة ــ كما هو ظاهر الآن ــ وهل ستكفيها الحرية السياسية كسبب لوجود تاريخي ناقص الشروط .

هذه الدول الشرقية هي القابلة التي تولت ميلاد الطفل العزيز ، طفلنا المدعو بالنظام الجديد .

ماذا لو فقدت هذه الدول حريتها ، ودخلت في الفوضى ، هل يستطيع النظام مواجهة الفوضى وإعادة (النظام) . . . ؟ .

إن شاهد لبنان وما يحمله من (فوضى) لهو حرج بالغ ضد النظام الجديد - والقديم وكل الأنظمة والمهمات الحضارية والإنسانية .

٤ - ٣ يستطيع (النظام العالمي الجديد) أن يكون جديداً لو أنه قدم فلسفة ذات مصداقية أخلاقية تعيد صيغة العلاقة ما بين القوي والضعيف ، وتبتعد عن شروط السيادة والقوة العظمى . مثلما تبتعد عن قناعة القوي بأنه يعلم كل شيء ويملك كل شيء . وبالتالي فإن ما لديه هو خير ما يمكن وأفضل ما يكون .

لم تستطع الولايات المتحدة من تحويـل علاقات القوة / الضعف إلى وجه إنساني يتفـق مع منجزاتها العظمى في الداخل . وهـي لم تزل تقدم سياستين متنـاقضتين إحداهما داخليـة ديمقراطيـة ، والأخرى خـارجية دكتاتـورية . وبينهما وجـوه أخرى ذات أقنعـة متنوعـة . حيث القنـاع الأوربي غير الآخر العربي والأفريقي ، وتختلف هـذه مع وجوه أخر منها ما هـو للصين وما هـو لكوريا ومـا هو لليـابان ، على اختـلاف عظيم وتنوع يجعـل الخارج الأمريكـي خارجـاً دراميا تنعـدم فيه شروط النـص الملحمي ، وتحل نصوص مختلفة متضاربة ومتضادة ومتقاطعة . ويكون نصاً عشوائياً كوجه آخر للنص الملحمي الداخلي .

إن أمريكا (لم تتمكن إلى اليوم من ايجاد أسلوب قوي يعتمد على ما هو أكثـر عدلاً وأقل قهـراً من نظريـة السلطة الحتمية ، تلـك الحتمية التي تشترك كـل الأيديـولوجيـات الثقافيـة في فرضهـا) . هكذا يقـول ويشهد ادوار سعيد ـ وهو واحد من أولئـك الذين تمكنوا من سبر خفايا الضمير الأمريكـي ، ويشترك بذلـك مع تشـومسكي ، ولقـد ورد نصه هذا في مقالة كاشفة عن علاقات القوي بالضعيف بعنوان : Representing the colonized ـ تمثيـل المستعمـَر ، بفتـح الميـم ـ ألقـاهـا في اتحاد الأنثروبولوجيين الأمريكيين في شيكاغو ١٩٨٧ م .

وهـذا يكشف عـن عجز إبـداعي ، ويجعـل الدنيـا الجديدة تكـراراً وإعادة للدنيا القديمة . ولن يكون بين أيدينا نظام جديد .

وسوف نظل على (قديم) عهدناه وجربناه ، بل إننا ـ نحن الشرقيين ـ أساتذة فيه . حيث إن القهر مهارة حضارية تشّرف الشرقيون بانتاجها وممارستها على قرون . ومن هنا فإن الإنسان الذي غزا الفضاء لم يتمكن ـ بعد ـ من غزو مصطلحاته وعلاقاته مع الآخر .

ويظل الآخر مادة للعطف الظاهري ، والقهر الضمني .

وليس لـلآخر مـن وجود إلا بمقدار مـا يقدمـه سؤال واحـد من بين مائتين وتسعة أسئلة .

ولكن . . . هـل هذه عدالة . . .؟ أي هـل يحق لنا معشر الشرقيين أن نطلـب من أمـريكـا غير ما كـانـت الحضـارات الأخرى ، والقـوى الماضية ، تفعل . . .؟

ربما لا يحق لنا ذلـك ، ونكون نحن الظلمـة والمعتديـن أو المتطاولين والمتطفلين على طعام ليس لنا وعلى مائدة مـرصوصة لغيرنا . في وقفات قادمة سوف أقف على هذا الافتراض البريء جداً .

٥ ـ Order.. Order.. Order..

٥ ــ ١ يـروي ابن حـزم في طـوق الحمامـة واقعـة شهد عليهـا عـن صاحب له وقع في غرام مع فتاة وهمية . وهي فتاة رآها في منامه فتعلق بها في صحوته . وبلغ منه العشق مبلغاً أورثه السقم والاعتلال على فتاة لا وجود لها ، ولم تكن صورة الحلم تمثيلاً عن أي واقع وليست على شبه مع أي امرأة حقيقية .

وتعجب ابـن حزم مـن حكايـة صاحبه هـذا ومن شـدة تعلقه بـوهم خلاب ، وما زال ابن حـزم بصاحبه حتى تمكن من تسليتـه وصرفه عن غرامه الوهمي .

وليس عجيباً أن يتعلق المرء بالوهـم . وكذلك ليس من العجيب أن تطارد الأمم والثقافات أوهاماً مصطنعـة . بل إن عدم وجود الأوهام هو الذي يقتضي العجب .

وما أكثـر ما تسعـى الثقافات إلى خلـق أوهامهـا الخاصة بها ، وإلى تصديق هذه الأوهام والتكاذيب وكذا التعلق بها والتبشير بها .

إن الـوهم مخلـوق جميل لا تقـوم ثقافـة إلا بوجـوده ولا ينتظم مـزاج فردي أو جماعـي إلا بمعاشرة الأوهـام والرؤى الحرة مـن شروط الواقـع والمصداقيـة . ولن تنسجم ثقـافة مع تـاريخها إلا إذا تمكنت مـن تخليق أوهـامهـا عن نفسهـا وعـن العـالم مـن حـولها . ولذا صـارت الملاحـم والبطولات الخارقة والأدبيات الجانحـة في خيالـها وفي (لا واقعيتهـا) و (لامصداقيتها) .

وإن كان عصر الملاحم قـد اختفى وأنتهى فإن الـوهـم لما يزل يمارس وجوده الفاعل والمؤثر والمطلوب في كل تفعيل ثقافي وحضاري .

وتأتي اللغة بوصفها تجسيداً عملياً للوهم فتمنح الإنسان مادة متكاملة لمرامـه الخيالي فتعطـي المعـدوم وجـوداً ، وتكون (العنقـاء) اسماً وعلماً وثقافة ولكنها اسم من غير مسمى وعلـم من غير جسد وثقافة من غير تاريخ ، ورسم من غير صورة .

وهذا الاسـم الذي بلا مسمـى ظل صوتـاً لغوياً فـاعلاً يخلق الـوهـم ويغذي الخيال ويملأ فراغ التصور والتمثل .

٥ ــ ٢ إن كانـت العنقـاء معروفـة الاسم مجهـولـة الجسم (حسـب القامـوس المحيط) فإن هذا الـوهم العربي القديـم يقابله وهم أمـريكي معاصر . وهذا الوهم الأمريكي يتماثل مـع ذلك العربي من حيث كونه معروف الاسـم مجهول الجسم ، واسـم هذا الأمريكـي هو : †Thenew World Order وتـرجمنـاه ــ نحن معشر العـرب ــ إلى : النظـام العـالمي الجديد. ولم يكن من باب السذاجة فينا أن جعلنا كلمة (نظام) بديلاً اصطلاحياً لكلمة (Order) .

لقد فعلنا هذا لكي نمارس حقنا في الـوهم وايهام الذات بنقله متفائلة مـن موحيـاة السلطـة والأمـر التي هـي تـداعيـات الكلمة الانجليـزيـة (Order) ، تلـك الكلمة ذات البعـد السلطوي الآمـر على لسان قـاضي المحكمة أو رئيـس البرلمان ، أو علاقات السلم الكنسي ، إنها نقلـة من لسان السلطـة والطبقة إلى حـال (النظام) لكـي نتوهـم قيام عـلاقات متوازنة بين العناصر العالمية المكونة لذلك النظام المتوهم .

نعم . . . جميل هو الوهم وجميل أن تكون ـ وأنت الضعيف ـ عنصراً

في (نظام) يسمح لك فيه القوي بأن تكـون على علاقة جديدة معه . ولسوف تنسى الموحيات الـدلالية لكلمة (Order) بمجرد أن تترجمهـا إلى (نظام) وتجعل من حياد الكلمة العربية سبباً لحياد متفاءل به في علاقات القوي مع الضعيف .

سيـــــدي النظــــــام الجـــــديـــــد
أنـــت عـــالمـــي الـــوجـــه واليـــد واللســـــان
لقـــد سمينـــاك بالعـــربيـــة (نظـــامـــاً)
وكـــان قـــومـــك قـــد سمـــوك (Order)
لقـــــد أعطينـــــاك رقيـــة سحـــريـــة
كـــي تكـــــون لطيفـــاً هينـــاً وإنسانيـــاً
أنـــت وهمنـــــــا الجميـــــــــل
وأنـــت عنقـــــــاؤنـــــــــــاً
هكذا أنت عندنا . . فما تكون عند أهلك .؟

٥ ـ ٣ عندما كنت في أمريكا لم أحاول قط أن أتحدث مع الأمريكيين عـن النظـام العالمي الجديـد ، على الـرغـم مـن تعلقي العـاطفـي بهذا المصطلح وعلى الرغم من تسامحي الكريم جداً مع نفسي ومع ثقافتي في ممارسة هذا الوهم واطلاق عنان الخيال وراءه .

لم أتكلـم عنه مـع الأمـريكيين لأنني كنـت أستطيـع تصـور حالتـي أمامهم لـو أنني أعلنت عن عشقي لفتاة رأيتهـا في المنام دون أن يكون لها أي وجود حقيقي . اسم بلا مسمى . اسم بلا جسد .

أتكلم عن اللاجسد في ثقافة الجسد !!!

كنت ـ إذن ـ سأسرد وأروي لهم حكاية رومانسية شرقية لا أكثر .

سيكون موقفي مدعاة للشفقة وللمجاملة . وما أقسى أن تكتشف أن حبيبك الغالي رخيص عند غيرك ، أو أن شموسك ليست سوى شرائح همبورجر عند غيرك .

لقد كان الاحتفال بالنظام العالمي الجديد مهرجاناً أجنبياً ومناسبة خارجية ، لم يشعر بها الأمريكي . باستثناء المتحدث الرسمي باسم البيت الأبيض وأحياناً المتحدثة باسم وزارة الخارجية .

لكن المصانع الأمريكية لم تعلم به ، ولذا فإنها لم تصنع الصحون والأطباق بشعار النظام وظلت قمصان الأمريكيين نظيفة وخالية من عوالق هذه الكلمات الثلاث . ولو أحس أصحاب المصانع برغبة الناس باحتضان هذا الشعار لبادروا بإدخاله إلى حقائب أيديهم ، وكللوه قصائد على قمصان تتزين بها صدور الحسناوات وعضلات الشباب ولتوجوا به قبعات الكهول .

لقد كان الفرح مناسبة خارجية .

وهل تفرح الضرة بمولود ضرتها . . . ؟

كان النظام الجديد نتيجة لحوادث خارجية مما يجعله خارج سياق التفاعل الأمريكي الداخلي ـ إنه ابن الضرة ـ ولذا فهو مصطلح معلق ، شعار من دون لوحة .

إنه وصف لواقع خارجي ولحوادث حدثت لغير الأمريكيين . لم يصنع الأمريكيون هذا النظام العالمي الجديد ، لقد وجدوه أمامهم .

هكذا صار : انهار الاتحاد السوفيتي وتمزقت الممالك الشرقية ،

وتعرى الكريملين وكشفت الـ (كي جي بي) عن ساقها وعن سوأتها، ولم يطق البيت الأبيض أن يكبح جماح وهمه ، فسمى الحادث بهذا الاسم : النظام العالمي الجديد . كعنوان جميل وكإعلان أنيق عن سقوط الخصم .

لم يكن ذلك الشعار ، الذي هو النظام العالمي الجديد تصوراً لمنهج في التعامل أو استراتيجية سياسية مختلفة ، ولم يكن تطوراً ذاتيا ـ فيما يخص أمريكا .

إنه مجرد وصف لحال ومجرد إعلان دبلوماسي لبق عن سقوط الخصم. وصفا الجو للعنقاء الأمريكية فباضت وصفرنا ، باضت الشعار وصفرنا نحن لهذه الكلمات الثلاث . ووضعنا كلمة (نظام) بديلاً عند كلمة (Order© لكي يكتمل الوهم ويسعد الحالمون بإجازة ـ ولو قصيرة ـ ينسون بها همومهم ، ريثما يعود العالم إلى سياقه التاريخي في المنافسة والاصطراع وسيطرة القوي على الضعيف ، مع ازدياد الضعيف ضعفاً وتشرذماً وصراع الضعفاء فيما بينهم وتفككهم من دواخلهم لكي يظل القوي متسيداً ومسيطراً .

ولتعش لنا أوهامنا فهي أجمل هدايا اللغة وأجمل صنائع الثقافة ولا ريب أننا قد عشنا بها زمنا رغدا . وذلك هناء لم نكن لنراه لولا ما اصطنعناه من أوهام . وإن انصرفنا عن كتابة الملاحم في عصرنا هذا ورغبنا عن الرومانسيات فليس لنا سوى أوهامنا وتكاذيبنا نصنعها فنصدقها إلى أن نعجز عن الاستمرار في اللعبة ، وحينئذ تأتي خيبة الأمل ويبدأ الأغبياء يفوقون من صحوتهم فيبدأون ــ حينئذ ـ بكتابة التحليلات الغبية عن تغيرات السياسة والشروط الموضوعية لما حدث

ويـدبجون ذلـك في بحـوث تملؤهـا الهوامـش والاستشهادات فيصفـون الموصوف ويعرّفـون المعروف ويملؤون المملوء ويفـرغون الفارغ و . . . ولا يفعلون ولا يقولون شيئاً .

أما الحالمون فسيبحثون عن وهم آخر يتعلقون به ، ويظل القوي على كرسيه يأمر وينهى Order , Order, Order .

٦ ـ الحلم الأمريكي

٦ ـ ١ ماذا جرى للحمل الأمريكي . . . ؟

هذا سؤال تسمعه في كل محفل جماهيري في أمريكا . وهو سؤال يطلق كإعلان عن فقدان الحلم وتلاشيه . لقد جاءت أمواج الهجرات تاركة العالم القديم وراء ظهرها بحثاً عن حلم كبير بالرخاء والنماء والحرية . وتخلّق هذا الحلم وكبر في رؤوس المهاجرين ، وظل يكبر ويتوسع مع الأجيال المتتابعة التي تتوارث الحلم وتنميه .

ولكن الأحلام شيء والواقع شيء آخر .

ومع الواقع جاء السؤال عن الحلم المفقود وعن الفردوس الأرضي الذي باع المهاجرون ماضيهم وتاريخهم من أجله .

ماذا جرى للحلم ؟!

هكذا يسأل السياسيون عن الحلم الأمريكي وكأن السياسي قد صار شاعراً يهجس بمشاعر الناس ، ويلمس المفقود والمطلوب في حياتهم سياسي من نوع غير شرقي يرى الغائب والناقص وما خلف الواقع ويترجمه إلى سؤال إنكاري ولكنه ــ رغم إنكاريته ـ يتضمن وعداً خلاباً من السياسي بأن يعيد الحلم إلى الحالمين إذا ما أعطوه زمام السلطة . وهنا يختلف السياسي عن الشاعر ، ويقترب من مثيله الشرقي . إذ إن الوعود بالفردوس وبالثبات والنبات لا تأتي من شاعر ، وتحتاج إلى سياسي مراوغ وخطيب دعائي يجيد لعبة التعرية من جهة ومنح الوعود من جهة ثانية ، يعري خصومه ويعري الواقع لكي يمنح نفسه كرسياً

في هذا الواقع المعرى ولكي يقنع الناس بحاجتهم الماسة إليه ليعيد لهم حلمهم . أليس هو الذي كشف عن غياب الحلم وأعلن كشفه هذا ..؟ ثم إن هذا السياسي بخطابه الشاعري لن يعجز عن جر الناس إلى لعبة البحث عن المفقود شريطة أن يلعبوا تبعاً لقواعده هو وحسب شروطه .

٦ ـ ٢ إن مصطلح (الحلم الأمريكي) من أكثر المصطلحات تردداً في الخطاب الإعلامي والخطاب السياسي في الولايات المتحدة . وهذا المصطلح يستند على ذاكرة عميقة وحساسة لدى الأمريكيين .

هذه (الذاكرة) الأمريكية تختلف عن الذاكرة الشرقية وعن أية ذاكرة في العالم القديم .

إن الذاكرة الأمريكية تنقسم في داخلها إلى ذاكرتين متغايرتين . واحدة مطمورة منسية . أو في الأقل هناك رغبة حقيقية في تناسيها وإلغائها ، وهي ذاكرة الماضي القديم والجذور الأولى والتاريخ السابق للمهاجرين ، حيث الشرق وشرق الشرق والدنيا القديمة ، مع الفقر والحرمان والاضطهاد . حيث الماضي التي هربت منه الذاكرة ولا تريد عودته ولا تذكره .

وفي مقابل هذا المنسي والمهروب منه تأتي ذاكرة أخرى ، حية وحاضرة . هي ذاكرة الأرض الجديدة ، الأرض الحالمة ، أرض الرخاء والنماء .

وفيما بين هاتين الذاكرتين يأتي (الحلم الأمريكي) ليمثل لحظات الهروب والانتقال من ذاكرة إلى ذاكرة . من القديمة إلى الجديدة . من الحرمان إلى الوعد .

وهنا يجد الخطاب الإعلامي والخطاب السياسي مرتعاً خصباً لدغدغة

المشاعـر وتحريك الأحـاسيس ثم ملء هـذه الأحاسيـس بما تريـده هذه الخطابات من حفز أو تثبيط .

ولـذا فـإن مصطلح (الحلـم الأمـريكـي) سيظـل شعاراً فـاعـلاً في الخطاب الجماهيري يمنح الخطباء مادة للقول وصيغة للتحريك والتأثير، وسيظل الحلـم بعيداً مـن أجل أن يبقى الشعـار فاعـلاً ومفيداً كضرورة خطابية وإعلامية وسياسية .

ومساكين هم الشرقيون الذين ليـس لديهم ولا بمقدورهـم طرح شعار كهذا . إذ لم يعد لدى الشرقي مـن (حلم) . إنه في أرض وجد نفسه فيها وقـرأ في كتب التـاريخ أن سـلالاته القـديمة كلهـا كانـت في هذه الأرض . ولم يأت أحد من أجداده من مكان بعيد خلف البحار ـ مثلما فعل الأمريكيون ـ حاملاً معه الحلم بأرض الوعود والبركات .

لم يعد في الشرق وعود ولا أحلام .
إن الحلـم أمريكي وحسب
للقوي ـ فحسب ـ أحلامه
أما الضعيف فليس له سوى الأوهام .

هذا هو الفـرق بين الخطيب الأمريكي والخطيـب الشرقي ، يتحدث الأول عـن الحلم مفقـوداً أو مـوعودا . أمـا الثـاني فليـس لديـه إلا أن يتحدث عن توفيق الله له ولأجهزته حيث وفقهم بالكشف عن (مؤامرة) أو (مؤامـرات) أجنبية كـانت ستقـوض أمن البـلاد وتوزع الخبـز على الرعاع . هؤلاء الـرعاع الذين يجهلون أبسط قواعـد الغذاء ولا يعرفون كيـف يطعمون أطفـالهم الكيـك بدلاً عـن الخبـز الذي لا يجدونـه ولا يقدرون على دفع ثمنه .

ينقص الأمريكـي حلم ولذا يعده سياسيوه بهذا الحلـم . أما الشرقي فلا يحتاج إلى الحلم ولذا فلا داعي من الوعود بأحلام لا حاجة إليها .

هنيئاً لأمريكا أحلامها . . . ولكن لمن هذه الأحلام . . ؟

٦ ـ ٣ مـا بين العامين ١٤٩٢ و ١٩٩٢ م خمسمائة عام من التـاريخ احتفل الأمريكيون بـذكرى وصول سفن كولومبـوس الثلاث حيث ابتدأ الحلم الأمريكـي . لقد احتفل الأمريكيـون بذكرى هجرة الـذاكرة من عالمهـا القديـم إلى عالمهـا الجديد ، احتفلـوا وتكلموا وحـاضروا في كل وسائلهم ومنابرهـم الإعلامية والعلمية والفنية . ولكن بقي فئة واحدة لم تحتفل ولم تفرح . هؤلاء هم الهنود الحمر . لقد كان عام ١٤٩٢ م عام الكابوس بـالنسبة لهم . كان بداية تاريـخ من التشرد والموت والضياع . كان نهاية الحلم ، ونهاية التاريخ ونهاية الحياة . ومر عليهم خمسمائة عام من الكوابيس والشتات .

إن حلم أولئك هو كابوس هؤلاء .

وفي الوجـه الثاني من الصفحة نجـد الدكتور مـارتن لوثر كنـج يقف وسط واشنطن العاصمة بين آلاف من الحشود الحالمة يصرخ فيهم :

إني أحلم . . .

إني أحلم . . .

إني أحلم . . .

وظل يحمـل كلمات خطبته الحالمة من مـدينة إلى مـدينة حتى جـاءته رصاصـة أصابـت دماغه وهشّمـت جمجمته فتشظى حلمـه وتطايـر مع قطرات دمه وقطع من لحمه ومخه ليدفن في المقبرة من دون جمجمة ومن دون حلم .

لقد مات بلا حلم .

إن حلم أولئك هو موت هذا .

وعلى الغلاف الآخر من الكرة الأرضيـة نجد الشرقيين وليس لهم من شيء سوى (وهْم) خجول بنظام عالمي جـديد لا وجود له : هو اسم بلا مسمى .

إن حلم أولئك هو وهْم أولاء .

وللأقوياء أحلامهم .

أما الهنود الحمر فلهم الكابوس .

ولمارتن لوثر كنج الموت .

وللشرقيين الوهم .

ومع الوهـم يبقى للشرقي ذاكرة واحدة فيهـا مـن الثقـوب والجلطات ما فيها . ويظل الأمريكي بذاكرتين إحداهما تشبه ذاكرة الشرق ولكنها منسية وملغاة والأخرى حية حالمة لها الحلم ولها المجد .

هي العظمى ، وهي الحرية والديمقراطية .

وهي خمسمائة عـام من التـاريخ الأبيـض . وليعش الـرجل الأبيـض غريباً يبحث عن حلمه ويفتقده ويتواعد به .

وللأحمر كابوسه ،

وللأسود موته ،

وللشرقي أوهامه .

٧ ـ السيـدة أمـريكا

٧ ـ ١ إن كان بريخت يقول :

أفضل شيء في أمريكا هو أننا نفهمها .

فإنني أقول : إن أفضل شيء في أمـريكا هو أننـا نستطيع أن نسيء فهمها ، ولا نخاف .

وأننا نستطيع أن ننتقدها ، ولا نخاف .

ونستطيع أن ننسب إليها كل شرور العالم ، ولا نخاف .

ونستطيـع أن نطـالبهـا بكـل دواعـي الضمير والأخـلاق والمسـؤوليـة التاريخية والحضارية ، ولا نخاف .

أفضل ما في أمـريكا وأجمل ما فيها أنها طعام شهـي لكل من أراد أن يأكل لحم أخيه ، من دون أن يكرهه الناس من حوله ومن أمامه .

كل الشعراء وكل المبدعين والمفكرين وأصحاب الأقلام في بلاد العالم جربوا الكتابة عن أمريكا ، وقـالوا فيها وعنها كل ما خطر على بالهم . سواء عرفوهـا عيانا أم تصوروها ذهنيا . وحينما كتب برتـولد بريخت عن أمريكا دون أن يراهـا وسأله السائلون عن ذلـك أجاب بكلمته هذه : أفضل شيء في أمريكا هو أننا نفهمها .

وسواء فهمها بريخت أم لم يفهمها ، فلقد كتب عنها وكرر الكتابة في قصائد وفي أعمال نثريـة مثله مثل غيره من كتـاب العالم . وظل بريخت كاتبـا طلائعيـاً وأديباً عـالميا لم تهتـز مكانتـه الأدبية أو الاجتماعيـة ، ولم

يصبح رجعيـاً أو امبرياليـاً ولم يقل أحـد عن فكره إنـه وعي زائف . ولم يتهمه أحد بالعمالة أو التعاون مع مخابرات ما .

هذه هي الكتابة عن أمريكا .

هي صوت حر تمارسه الأقلام بلا رقيب وبلا محاسبة .

لقد سال حبر كثير على وجه أمـريكا وتكّسرت الأقلام على الأقلام ، ومازالت الكتابـة مستمرة ، ومازالت الأذهان تدخـل في مباريات عقلية محتـدة حول أطـرف التـأويلات وأغـرب التفسيرات عـن وجـه أمريكـا وقفـاها ، عـن قراءة سيـاساتها والتنبـؤ بحركـاتها ، وحتى عـن مصير وجودها وعن مستقبلها .

كل هذا حدث ويحدث ، ولا خوف على من يكتبون .

الكاتب لا يخاف ، وأمريكا لا تتغير .

كل الكتابات التي صارت وكـل الحبر الذي سال على وجه أمريكا لم تستطع أن تغير شيئاً مـن قسمات هذا الوجه كالحاً كـان أو جميلا ، وما تلطـخ هذا الـوجه مـن ذلك الحبر . وإن كـان الحبر لم يستطع تلطيـخ ذلك الوجه فإن مياه الشرق كلها ونفطه ودموعه لم تستطع قط أن تغسل خصلة من خصلات شعر السيدة . لقد ظـل الوجه الأمريكي في قارته مثل العفريت في قمقمه يظل محبوسـاً فإذا ما خرج فإنما ليقول : شبيك لبيك ، سيدك (وليس خادمك) بين يديك .

سيدة هـي أمريكا ، تسبها فتضحـك وتجعلك تضحك معهـا ، بل إنها تعطيـك الأقلام والـورق وضوء المصبـاح وتدعـوك للكتابـة وتسطير مشاعرك على جسدها وعلى جبينها .

كل ذلك لكي تشعرك أنها ليست شرقية .

ليست شرقية .

ماذا لو كانت أمريكا شرقية . . . ؟!

إن للشرق حكاياته وسحره، وله أيضاً طرائقه الخاصة في التعبير والاتصال. ومن هذه الطرائق ما رواه أمبرتو إيكو في حكاية عن ترجمة روايته (اسم الوردة) إلى إحدى اللغات الشرقية ـ قبل مجيء البيروسترويكا ـ حيث اصطدم المترجم بجملة صغيرة في بداية الرواية تحكي عن مدينة (براغ) وتشير استطراداً إلى الغزو الروسي لتشيكوسلوفاكيا . وهذا أحدث ربكة للمترجم الذي اتصل بإيكو يطلب إذنه في حذف هذه الإشارة ، إذ يصعب ذكر هذا الغزو . ولقد رد إيكو مازحاً وقال للمترجم الشرقي: إني أحب براغ وكذا أحب دبلين، ويمكنك أن تضع الأخيرة بدلاً عن الأولى. فقال المترجم، ولكن الروس لم يجتاحوا مدينة دبلين، فرد عليه إيكو: هذه ليست غلطتي.

ولكن غلطة إيكو هي أنه ذكر حادثة تاريخية فاخترق الصمت الشرقي . هذا الصمت الذي صار أغلى ممتلكات الشرقيين يعالجون به ضمائرهم ، ويسترون به وجه تاريخهم . وجاء إيكو ليكشف المستور فصارت خطيئته التي لا يقوى المترجم على مداراتها .

٧ ـ ٢ الشرق يستر .

والغرب يكشف .

خطابان مختلفان ، خطاب الصمت والنسيان ، وخطاب الكشف والتذكار .

والـذي يكتب لابـد أن يعـي شروط اللعبتين ، فـإذا ما كتبـت عـن الشرق فـلابـد أن تضـع حسـابات لنفسـك ولقلمـك وتـأدب بـآداب الشرق. فإن لم تفعل فأنت رجعي أو خائن أو عميل .

أما إن كتبـت عن الغرب ، أو أمريكـا خاصة . وأكثرت مـن النقد والتعرية والكشـف فأنت عند الشرقيين كاتب طليعـي تقدمي مستنير ، تحارب الاضطهاد والامبريالية .

ومن هنا فإن أجمل ما في أمريكا أننا نقول عنها ما نقول ولا نخاف . وهذا هو ما أسـال أقلام العالم حبراً وكتابة عن أمريكـا ، وجعل أمريكا مـادة للقـراءة الحرة والمفتوحـة ، يجرب فيهـا الكـاتـب قلمه ومهـاراتـه الذهنية، وهو مصيب في كل ما يقول .

ولكن ما هو موقف أمريكا من كل ذلك . . .؟

إن أمريكا ليست مخطوطاً صامتاً تتداوله الأيدي من دون حول له أو طول . ! إنها كتاب حي له مائة لسان ـ بعدد الأمم والشعوب واللغات التي عبرت البحار واستطونت هناك في الغرب البعيد .

وكل لسان له من الفصاحـة والبلاغة ما يثير حيرة الشرقيين ويتحدى كل فصاحاتهم .

ومن فصـاحة هذا اللسان قـدرته على ابتكار المصطلحات البـديعة ، مثـل مصطلـح النظـام العـالمي الجديـد ، ومثـل مصطلـح الحريـة والديمقراطية لكل الشعوب .

وهـذه مصطلحات لها قـوة سحـرية خـارقة ، قـوة سحـرية ينشغـل الشرقيـون بالكتـابة عنهـا والتفكير فيهـا سنين طويلـة ، ويصرفون كـل

أرصدتهم المالية لشراء حبر يكتبون به قصائدهم ومقالاتهم عن السحر الأمريكي ـ الحرية والديمقراطية .

هذه الرقية الأمريكية لها دوران متكاملان ، أولهما أنها طعم للشرقيين يتغذون عليه ويشغلون به عقولهم ، والثاني دور داخلي يجعل الإنسان الأمريكي يشعر بالراحة والاطمئنان في ضميره الإنساني حيث يرى حكومته تدافع عن حقوق الشعوب الأخرى وتمنحهم الحرية والديمقراطية .

ولقد تعود الفرد الأمريكي على حكومته وعرف أنها حكومة صادقة في تعاملها الداخلي . والصدق عادة لا يتجزأ ، ومن هنا فإن هذه الحكومة تصدق في قولها عن حرية العالم الآخر وديمقراطيته ودفاعها عن هذا الشعار . وهذا يعطي للمصطلح صفة الأخلاقية ويتخلص الضمير الأمريكي من أحاسيسه العالمية ، وينصرف الأمريكي إلى تمتيع نفسه والعيش بهناء . وتصبح المتعة حتى وإن بلغت حد الإسراف عملاً أخلاقياً لا يجرح الضمير منذ أن أحس الأمريكي بخلاصه من مسؤولياته العالمية بعد أن منح العالم هذه الرقية البديعة . وشكراً للسياسيين وما أعطاهم الله من فصاحة تحل كل مشاكل الضمير .

٧ ـ ٣ يرتاح الأمريكي وينام ملء جفونه عن مصطلحه ويسهر الشرقيون وراء هذا السحر ويختصمون . ويبدأ نوع من الكتابات الفكرية والابداعية ، حيث يصب الشرقي عصارة خياله على أمريكا وثقافة الخطاب الأمريكي . ويبدأ النقد والتشريح حيث يتلاقى الطلائعي في مواجهة سافرة مع الامبريالي . ويبدو على الطليعي وكأنه مثالي أخلاقي . وتقرأ من فوق السطور افتراضاً بلاغيا يوحي لك بأن

الخطاب الطلائعي خطاب صادق وانساني ، وأنه لو حكم العالم لقام بإصلاح أخطاء البشرية وقام بنشر العدالة والحرية والرخاء بين كل البشر ، وأتى بما لم تستطعه الأوائل وما عجزت عنه أو ما عزفت عنه أمريكا .

ويستمر الخطاب حواراً صامتاً بين طلائعية مثالية وواعدة من خلال نقدها للراهن وبين امبريالية فصيحة وذكية . تعطي الطعم تلو الطعم وتستمتع بالفرجة على السمك وهو يهرع مسرعاً باتجاه طعم وراءه سنارة متينة .

ووسط ذلك يظل الوهم الخطابي بأن الضعيف مثالي وانساني وأن القوي ظالم مستبد ، وتختفي الحقيقة وراء ذلك ، بينما يظل الظلم والحرمان هو اللون الأكبر على وجه الأرض يتنقل من مكان إلى مكان ومن تاريخ إلى تاريخ ومن أمة إلى أمة . ويتساوى القوي والضعيف في انتاج المظالم وتصديرها ، وفي ابتداع خطاب بلاغي يريح صاحبه ويشعره أن الآخر هو الظالم وأن الذات مظلومة من جهة ومثالية من جهة أخرى .

ويبقى لنا نحن هذا الاحساس الجميل بأن الكتابة عن أمريكا هي أكثر الأفعال الثقافية أمانا وهي أقرب الطرق إلى الطلائعية والمثالية .

وعلى جياع البشر ومحروميهم أن يناموا تحت حراسة سحر الكلام، وتحت دعوى تقول لو تسيد الجائعون والمحرومون لملأوا الأرض حرية وديمقراطية ، ـ تماما مثلما يقول الخطاب الأمريكي المعاصر ـ .

٨ ـ أوديب الأمريكي

٨ ـ ١ تأتي الكتابة عن أمريكا وكأنها ضرورة ثقافية ، لا تكتمل عدة كاتب ما إلا بها . بدءاً من كولومبوس ومذكراته عن الهنود الحمر والأرض والطبيعة ، مروراً بكل كتاب العالم وشعرائه وسياسييه . حتى ليخيل للمرء أن خيالات الرحالة القدامى وخرافاتهم عن جزر عائمة وأخرى مفقودة خلف مغيب الشمس إنما كانت نبوءات عن هذه الأرض المخبوءة خلف المياه .

هذه أمريكا أسطورة الخطاب الحديث . وإن كانت الأساطير الأغريقية هي نواة كل إبداع أدبي ، وهي السر الكامن خلف كل خطاب نقدي ، فإن أمريكا هي (يونان) العصر الحديث . حيث تجدها داخل كل خطاب ووسط كل معرفة ، ووسيلة كل مثاقفة .

وبما إنها نص مخبوء داخل كل النصوص فإنها قد تحولت إلى (بطل) ملحمي . ومن شأن البطل الملحمي أن يكون تراجيدياً . مثل أوديب، الذي كتب عليه أن يهاجر عن دياره ليعود مرة أخرى فيقتل أباه ويتزوج أمه ويحكم الأرض ، بعد أن انتصر على الوحش .

أفلا تكون أمريكا هي أوديب الأسطوري ؟ أليس الشرق الآن ملك يديها والشرق عندي هو كل ما يقع شرق الساحل الأمريكي ، وذلك لأن أمريكا هي المركز ، ومن ثم فإن جهات الجغرافيا تقاس بعلاقتها بهذا المركز .

أليس كل ما هو شرقها ملك يديها . . ؟ لقد تزوج أوديب الأمريكي

أمنا الأرض ، ومات الآبـاء ـ كل الآباء ـ بدءاً من سـلاطين الكرملين وانتهاءً بالامبراطور (هونكر) .

هذا البطـل المعاصر لابد أن يكـون قوياً وجبـاراً وقدريا لكـي يكون أسطـوريا وملحميـا . ومـن هنا فـإن النظـرة إليـه تتحكم فيهـا شروط علاقات القـاريء بالمقروء ، لاسيما إذا كان المقروء أسطـوريا . ولسوف يكون القارىء حينئذٍ هو الضحية التي تسعى إلى الدفاع عن نفسها عن طريق اتهام الآخر .

لهذا فإن (الموضة) الثقافية هي ذم أمريكـا . ولا يوجد كاتب عالمي إلا وجعل شتيمـة أمريكا واتهامها شرطـاً من شروط الكتابة عـن أوديب الجديد . حتى إن الثناء على أمريكا قد صـار كلاماً ساذجاً وممجوجاً ، لا يمثل ولا يقدم خطاباً معرفيا أو ثقافيا .

هـذا يجسد العـلاقة بين القـاريء والمقروء في معـادلة تنـافسية تجعـل المقروء قوياً وعظيما وغنياً .

وتجعل القاريء ضعيفاً ومستلباً وفقيراً .

وفي معادلة كهـذه لا تكون العلاقة إلا محاولة لقتـل الآخر . والآخر هنا هـو أمريكا فحسـب ، التي تمثل الأب والـوحش . وتنشأ مـع هذا رغبات متناقضة مـا بين الكراهية المعلنة والمحبة المضمرة . وكـل الذين يكتبون عن أمريكا بكره معلـن ويطلبون موتها والقضاء عليها يتمنون ـ في الوقت ذاتـه ـ أن يكونوا مثلها أو أن يتجنسـوا بجنسيتها . أي إلغاء الآخر إما بقتله أو بتحويله إلى (ذات) .

٨ ـ ٢ هذا الهوس الكتـابي عن أمريكا حوّلها إلى قوة ضـاربة ، ليس

بما تملكه من جيوش ومخابرات وتكنولوجيا ، ولكن بما تمثله من سلطان نفسي يشبه الرعب الميتافيزيقي الذي تمتلكه الأساطير . إذ احتلت أمريكا دواخلنا حتى صارت مؤسسة معرفية لها قوتها من جهة ولها تأثيرها من جهة ثانية ، ومن ثم أخذت تتضخم داخل لغتنا وداخل تصوراتنا حتى صارت العملاق الذي لا يقاوم ، واصطبغ العصر بصبغة أمريكا منذ أن تحولت إلى أسطورة تتحكم باللغة وتوجه الخطاب .

ولن يكون أي كاتب من الكتاب عصرياً إلا إذا كتب عن أمريكا . ومن لم يكتب ـ أو يتكلم ـ عنها فهو خارج زمنه وخارج عصره . حتى لقد غدت أمريكا أشبه ما تكون بسفينة نوح . والعالم مأمور بأن يركب في السفينة ، ومن لم يركب فسوف يغرق .

لقد حاول بدر شاكر السياب أن يتجنب ركوب هذه السفينة ، ولكنه لم يستطع مثله في ذلك مثل برتولد بريخت الذي كتب عن أمريكا دون أن يراها .

حاول السياب أن يأوي إلى جبل يعصمه من سفينة أوديب الجديد، ولكنه عجز وتعامل مع الشاعر ت . إس . اليوت (الأمريكي ولادة ونشأة) . واضطر إلى تبرير هذه العلاقة بأن وصف إليوت بأنه شاعر رجعي ولكنه مبدع . ولو شاء السياب لقال إن إليوت هاجر من أمريكا عائداً نحو الشرق وجعل بريطانيا مقراً له ، ومن هنا فإنه غربي متشرق، مما يقربه للسياب ويبرر التلاقي معه. ولكنها السفينة التي لا مفر من ركوبها .

٨ ــ ٣ وما دمنا قد وضعنا أمريكا في استعارة مجازية مع أسطورة أوديب ، فإن وجوه التشابه تظل متلاحقة بين أطراف هذا المجاز .

وهي تشابهات لا تقتصر على القوة والجبروت ، ولكنهـا ـ أيضاً ـ تشترك في وجوه الضعف والإنكسار .

فـأوديب البطـل ينكسر على نفسه مـن الداخـل ليكون مثـل غيره ، وتتكسر نفسه وتتهشم أحاسيسه . وكذا هـي أمريكا من داخلها . حيث تراها كائناً بشرياً مثل أي كـائن بشـري آخـر . إن الوحش في الخـارج ـ فحسب ـ والوجه الصارم العنيف ينطوي على قلب هش حساس .

إن أمريكا تكـوين بشري وإنساني صحيح ، قوية وجبـارة ومع ذلك حساسـة وذاتية ومن الداخـل ضعيفة كأي كـائن حي ، تشعر بالعـزلة والخوف وتخشى المصير وترتعب من المستقبل . وهي مثلنا تجهل الحاضر وتخفى عليها أمور . وسلطانها لا يكشف لها عن الغيب ولا يحميها من غضب جماهير لوس انجلوس ، أو غضب الناخبين وخيبة آمالهم .

وهي بعد تفردها بالقوة بعد غياب الاتحاد السوفياتي سوف تكون أكثر عرضة للخطر والتهديد والقلق . ذاك لأنها كـانت تقيس نفسها بالآخر المنافـس لها . وكانت تبرر نفسهـا بذلك الآخر . وكـانت تشحذ قـواها وتنمي تحفزاتها بسبب ذلك المنافس . وآية ذلك هي هبوط نيل آرمسترنج على سطح القمـر . وهو هبوط صار بسبـب تحفز جون كنـدي في وجه المنافس السوفياتي ، وإصرار كندي على أن تحقـق أمريكا مكسباً فضائيا يفـوق مكاسـب السوفيـات . فكان ذلـك . ولولا هـذا التحفز وهـذه المنـافسـة لتـأخـرت الـرحلـة إلى القمـر مجاراة لتقـاديـر العلماء حسـب تخطيطاتهم المدروسة والحذرة . غير أن الغيرة السياسية كانت أشد حرقة، ونارها أنضج مـن نار العلماء ، وهبط الأمريكي على القمر محققـاً بذلك ما لم تستطعه الأوائل .

هذا من مكاسب المنافسة . أما الآن فلا منافس .

فهل ستظل أمريكا بلا منافس ، أم أنها ستخلق منافسها .

أو بالأحرى هل سيتركها التاريخ بلا منافس . . .؟!

ولكن . . . قبل ذلك وبعده تظل أمريكا مركزاً للخطاب الثقافي المعاصر مما يجعلها أسطورة العصر وميتافيزيقا العالم الحديث .

٩ ـ سلطة المصطلح

٩ ـ ١ الشرق :

يأتي (الشرق) وكأنه امتداد طويل يغطي الرقعة الكبرى من الكرة الأرضية . ممتد في بعده الجغرافي ، وممتد في بعده التاريخي ، فأكثر تاريخ البشرية هو تاريخ شرقي ، في الديانات والآداب والتقاليد والأساطير ، وفي الأجناس البشرية ولغاتها . حتى أولئك الذين ننعتهم بالغربيين ينتمون دينياً إلى الشرق ، ولغوياً إلى عائلة اللغات الهندية (هندوأوروبية) .

ويبدو أن الشرق ظل يزحف ويزحف نحو الغرب ، في مطمح قديم يتطلع نحو حلم متأصل ، يجاري الشمس ويجري وراءها ، ولكنه يصطدم بالبحر في كل مرة ينطلق فيها خلف الشمس .

ولابد أن (الشرق) كان يتمدد بتلقائية شديدة ، ولم يكن يشعر بتمدده ذاك ، إلى أن التفت إليه الغربيون بعد أن نهضوا في قرونهم الخمسة الأخيرة ، ولاحظ الغربيون خضامة ذلك الشرق ، فقسموه إلى مشارق . هي الأقصى فالأوسط فالأدنى . وما أبعد المسافة ما بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى . وتسمية أقصى وأدنى تعود إلى المقياس الأوربي الغربي فالأدنى هو الأقرب لأوربا وما ابتعد عنها فهو أقصى . ويضاف إلى ذلك بقع لا هي قصوى ولا هي دنيا ولا هي وسط . تلك هي الدول المتحالفة مع الاتحاد السوفياتي (سابقاً) . وهذه تلطف الغرب وسماها (شرقية) فهي الكتلة الشرقية أو أوربا الشرقية .

وعلى هذا القياس فإن (الشرق) صار عريضاً وواسعاً وكبيرا وهو علاقة ثقافية لها صورتها الذهنية وموجباتها النفسية والعرفية ، التي تحسن أحياناً حيث الإغراء والسحرية ، وتسوء أحياناً أخرى حينما توحي بالخمول وذبول الحاضر وتعفن التاريخ بسبب عدم الاستعمال ، وقلة التحرك .

٩ ـ ٢ الغرب :

إن كان الشرق واضحاً بوصفه مصطلحاً جغرافيا وثقافياً فذاك لأن البعد المكاني يتطابق مع الدلالة الثقافية . وليس بعسير على أحد أن يقول إن فلسطين هي شرق أوسط بينما الصين شرق أقصى والدار البيضاء هي على آخر حدود الشرق الأدنى . تلك معالم واضحة والفروق فيها تتطابق مع فروق اللون وأشكال الأنوف وتغيرات الطقس .

ولكن ماذا عن الغرب . . . ؟ هنا يختلف المصطلح ويأخذ وضعاً خاصاً في تكوينه ، إذ ليس هو قياساً جغرافيا وهنا يصعب علينا أن نتصور دلالة كلمة هي في أصلها مصطلح جغرافي ، ولكنها لا تستجيب لشروط البعد المكاني .

وإذا قلنا إن (ألمانيا) غرب وثقافتها ثقافة غربية ، فهل نقول إن (المكسيك) أو (بنما) تمثلان الثقافة الغربية بما أنهما واقعان في غرب الكرة الأرضية ؟

وهل سنقول عن بورخيس أو ماركيز إنهما كاتبان غربيان ، أم أننا نصفهما وننسبهما إلى أمريكا اللاتينية . وهذه صفة تختلف ثقافياً وسياسياً عن صفة الغرب والغربية .

إن مصطلح (الغـرب) يستقل عـن الحدود الجغرافيـة ويفارق بهذا مصطلـح (الشـرق) . ويصبـح الغـرب مفهــومــاً ثقافيـا أو لنقـل (حضاريـا) . له بـداية تاريخيـة وليس لـه بداية جغـرافية . يبـدأ من عصر النهضة الأوروبية ، ويتسع في زمن الاستعمار ليشمل رقعة مكانية عـريضة يتقـوى بسببها داخليـاً ، وينتشر ثقـافيا ويتمكـن من غـرس جذوره وتنميـة شجرتـه . ثم يحقـق قمة تنـاميه بـاستيلائه على أمـريكا واستيطانـه فيها . مما ضمـن لمصطلح (الغرب) الاستمـرار والسيطرة والتمكن . وهـذا استمرار لتاريـخ ولثقافة ـ يتجسـد ذلك باللغـة التي تتحكم بالتفكير وتصنع التاريخ .

وفي حين ظـل مصطلح (الشرق) مصطلحـاً ثـابت الحدود واضـح المعالم ، جغرافيا وثقافيا ، ، مما يعني ركوده وتجمده عند نقطة فاصلة في التاريخ ، فـإن مصطلح (الغرب) ما انفك يتحـرك ويتحول ، يدني شعوباً وبلادا ، ويقصي أخرى . فإسرائيل غربية ، أما تشيلي فلا .

صار الشرق مكـاناً قـابلاً للعـزل والتمييز ، أمـا الغرب فهـو مفهوم ينتـج نفسه ويتـولد مـن صفتـه . إنه نظـام ثقـافي يتكون مـن منظومـة اصطلاحية ــ ثقافية وسياسية واقتصـادية ـ ومن تحلى بهذه المنظـومة فهو غربي حتى وإن كـان شرقي الموقع كاليابان . ومـن لم يتصف بها فما هو بغربي حتّى وإن كان في أقصى مغارب الشمس .

٩ ـ ٣ من هنا صـار (الغرب) هو التاريخ وهو الـزمن منذ أن كان مصطلحاً دائم التحول والتطـور ، ويتولد من صفاتـه ولا ينغلق داخل حدوده . وكـل من أراد أن يعيش التـاريخ ويجاري الـزمن فإنـه مضطر لركوب هذه السفينـة المتحركة . فادوارد سعيد مثلاً صـار مفكراً غربياً

لأنه دخل إلى الغرب وتكلم لغته واندمج في الخطاب الغربي . ولم يكن بحاجة إلى أن يستسلم أو ينهزم أمام ذلك الخطاب . بل صار عضواً فاعلاً داخل هذا الخطاب من خلال تشريح الخطاب الغربي السائد وتفكيكه . ولو ظل ادوارد سعيد في فلسطين لظل واحداً من تلك الأرقام الشرقية المغمورة ولن يكفيه أن ينتقد الخطاب الغربي من خارج الدائرة . إن الناجين هم أولئك الذين يركبون على ظهر السفينة . أما من لم يركب فله الغرق .

وإن كان الفارق بين فلسطين ونيويورك واضحاً فيما بين شرق وغرب، فإن الفارق بين فرنسا وأمريكا ليس بهذا القدر من الوضوح . غير أن الحوادث تشير إلى أن مقدمة السفينة ليست مثل مؤخرتها . ولذا احتاج جاك ديريدا أن يذهب إلى جامعة ييل ثم إلى آرفاين بكاليفورنيا إمعانا منه بالتغلغل في الغرب وغرب الغرب لكي يكون في مقدمة السفينة وفي رأس المقدمة . ولو ظل على ما كان عليه في فرنسا ولم تستقبله جامعة ييل وتتشكل من حوله جماعة نقدية هناك ، لكان شأنه أقل وتأثيره أضعف .

إنه الغرب ذو السلطان صاحب اللغة ومالك التاريخ . الغرب الواحد في مقابل الشرق المتجزيء ، والغرب المتحول في مقابل الشرق الثابت .

ولن يعجز الغرب عن ابتكار المصطلح البديل إذا احتاج الأمر إلى ذلك ، وحينما تلاقى الأغنياء مع الفقراء ، وضعوا للفقر اسماً محايداً فسموه بالجنوب ، وتركوا الشمال للأثرياء استجابة لميول الجغرافيا . أما إذا تعقدت المسائل واختلطت الجهات المكانية فإن كلمات مثل مصطلح

(الدول النامية) تحل الإشكال وتحفظ للغرب حقه بالتميز ليكون هو (المتطور) والآخرون مازالوا في طور النمو ، وهذا مصطلح فيه ترضية للخواطر ، وإلا فإن تلك الدول النامية أقرب ما تكون إلى سن اليأس منها إلى سن النمو . إنها دول عتيقة بلغت من الكبر عتيا حتى تحشرجت السنون في حنجرتها . ومازالت نامية تنمو ـ في عرف الغرب وفي لطافته اللغوية السخية ـ حتى وإن كان نموها يشبه نمو طفل معاق .

أقول قولي هذا قاصداً أن يكون مقدمة للموضوع الأساس وهو تداخلات الشرق بالغرب ، وهو ما سيكون في الحلقة القادمة ـ إن شاء الله ـ .

١٠ ـ الغـرب المتشـرق

١٠ ـ ١ هكذا [١] صار مفهوم (الغرب) مصطلحـاً متحركاً يعتمد على صفـاتـه ، وليس على حـدوده المكـانيـة ، بحيـث تصبح اليـابـان وإسرائيل أجزاء من الغرب المصطلح ، رغم اختلاف الموقع الجغرافي .

إن الجغـرافيا لم تعـد أسـاساً لتحـديد مفهـوم (الغـرب) ولذا فـإن المكسيـك لا تجد لها شفيعاً مـن مـوقعها ليجعلهـا غـربية . إنـه الشرق وحده الذي ظل حبيس الحد الجغرافي .

تلك هـي الصورة الظـاهريـة . ولكـن هـل سارت الأمـور على هذه الحال ، بمعنى هل ظـل الغرب نقياً ومتطهراً مـن الشرق . .؟ بحيث نقـول إن القمقم ظـل محبـوساً في الجرة ، وتـم إغـلاق الأبواب مـا بين الشرق والغرب مثل إغلاق ذي القرنين على (جوج ومأجوج) .

تلك كانت أمنيـة الشاعر كبلنج بكل تأكيـد ، وتجاريها محاولة شرقية فذة ببناء سور برلين الذي به تحصن الشرق من الرياح الغربية .

ولكن كبلنج مـات ، وسور برلين تحطم على رأس بـانيه . ومثلما غزا الغرب بلـدان الشرق بجيوشـه وبأفكـاره فإن الغـرب أيضاً قـد تعرض لتسللات شرقيـة ، أولها (ألف ليلة وليلـة) ذلك الكتاب الـذي دخل إلى كل رأس غـربي مثل دخـول النفط الشرقـي في خزانـات سياراتهم ، وليس للأمثلة من آخر .

ولكن لنقف عند بريطانيا كمثال على تشريق الغرب وتغريب الشرق.

---

١ ـ اشارة إلى الحلقة الماضية (رقم تسعة) .

١٠ ـ ٢ من بعض أساطير العرب عن العنقاء أنها طائر عملاق ـ إذا فرد جناحيه وطار غطى على الشمس وحجبها . وكذا كان لبريطانيا في بعض عهود عزها القريب . لقد فردت جناحين عملاقين امتد أحدهما إلى الغرب فغطى أهم بقع الدنيا الجديدة وأغناها . وامتد الجناح الآخر شرقاً فغطى أعز بقع الشرق وأثراها تاريخاً وخيرات . وبذا لم تستعمر بريطانيا الأرض فحسب ، ولكنها صارت ترى نفسها وقد استعمرت الشمس واحتكرتها لها خاصة ، حتى صارت لا تغيب عنها .

كان ذاك مشروعاً بريطانيا خارقاً امتلكت فيه بريطانيا الشمس واحتكرتها لنفسها بعد حرمان طويل من الشمس . وصارت مدينة الضباب والغيوم والمطر المستديم عاصمة لامبراطورية الشمس ومالكتها والمسيطرة عليها . إنها الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس .

هكذا كانت بريطانيا في عهدها الزاهر الباهي . إلى أن طلع عليها فتى مغامر اسمه جورج واشنطن رجل عادي (A Common man) حسب وصف الملك جورج الثالث .

وجاء هذا العادي من عامة الناس ليتحدى الملك في ملكه ويكسر أخيراً جناح الطائر العملاق . كسر الجناح الغربي . وفصل بعض الغرب عن الغرب واختلت بذلك كفة الميزان ، ومال الطائر بجسده كله باتجاه الجناح المتبقي . ومن هنا وضعت بريطانيا ثقلها على الشرق وبدأت بالتشريق .

١٠ ـ ٣ فرحت بريطانيا بهذا التشريق ، ورأت أن مملكة الشمس تغنيها عن بريق الغرب المفقود . ولقد جاء الشرق على بريطانيا بكل ما تملك يده من ثروات بما في ذلك مجوهرات التاج الملكي ، وأيادي

الآسيويين التي أبلت بلاءً شرقياً في حفر معابر قطارات لندن التحتية (Under Ground) وتكسير صخور مناجم الفحم . ومَنْ غير الشرقيين أهل لهذا ، حفاظاً على ياقات السادة الإنجليز من أن يتسخ بياضها الناصع بسواد الفحم أو طين مغاور لندن المتعفن بالرطوبة والندى . طين لم ير الشمس فجاءه المشمسون كي يزيحوه عن طريق السادة البيض لتعبَّ قطاراتهم في الأنفاق النظيفة التي تتحدث عن استعباد الضباب للشمس . ويتوج ديزريللي فرحة بلاده بأن يمنح الملكة فكتوريا لقب امبراطورة الهند .

لقد فرحت السيدة العجوز فرحاً عظيماً بهذه الهدية من رئيس وزرائها ، وأحبت الوزير الأول هذا حباً عظيماً إلى درجة أنها لم تفهم كيف امتنع الناس عن التصويت له في الانتخابات ولم يجددوا ولاية هذا الرجل الحبيب ، ووضعوا بدلاً عنه منافسه البغيض الذي لا تطيق الملكة رؤيته .

ولكن الملكة الإمبراطورة لا تجلس دون سلوى تلهيها عن فقدان وزيرها ، لقد جاءها من الهند هدية طريفة وعجيبة . هي مشروب داكن يسمونه الشاي . ولقد وضعت الملكة شيئاً من هذا السائل في كأس وحاولت تذّوقه ، ولكنها وجدته مراً وحاداً . ولم تستطع الحنجرة الملكية أن تمرر هذا الداكن المر . لقد كان مرور القطارات عبر أنفاق لندن التحتية أسهل من مرور هذا السائل الشرقي عبر الحنجرة الملكية . والمعجزة الآسيوية في الأنفاق قصرت دون عبور هذه الحنجرة .

ولكن الملكة كانت من الحصافة إلى درجة تمكنت معها من حل المشكل . لقد أضافت قليلاً من الحليب الانجليزي الأبيض الصافي إلى

ذلك السائل الشرقي فتحول الداكن المر إلى (أشقر) حلو . لقد صار وجهاً انجليزياً وقد كان من قبل آسيوياً يشبه أهل المشرق بسمرتهم ومرارة أحوالهم .

أما وقد صار أشقر حلوا بإضافة قليل من الحليب إليه ، فإنه بذا تحول إلى مشروب ملكي ، ثم أصبح مشروباً وطنيا يتعاطاه الانجليز بوصفه شايا انجليزيا وليس شايا آسيويا . ودخل في حناجر الانجليز وفي ساعات يومهم . يقسم اليوم إلى ساعات للشاي وأخر للعمل .

لكن هذا السائل الأشقر ينطوي في داخله على الداكن المر . أي أن الشرق ظل مختبئاً تحت الجلد مثل اختباء النار تحت الرماد . وجاء الداكن المر تحت اسم جديد هو (غاندي) ليفعل ما فعله جورج واشنطن ، ولكنه هذه المرة لم يتقدم بجيوش وعساكر وإنما يكتفي بالتسلل عبر الشاي حيث يعبر الحناجر بيسر وسهولة إلى أن يتمكن من داخل الجسد ويبدأ بالمقاومة الخفيفة ولكنها مقاومة تطرد النوم من العيون فيتأرق الجسد ويتعب من قلة النوم . والسبب هو هذا السائل الشرقي الذي يتسلل بواسطة الحليب فيختبيء الأسمر تحت الأشقر ويفعل فعله بالتنبيه ومداومة الإيقاظ .

وهكذا انكسر الجناح الشرقي وعادت بريطانيا أدراجها عبر السويس لتغيب عنها الشمس مرة أخرى وتدخل في ضباب يكلل عاصمتها ويطوقها ببياض لا ينقشع عن شمس وإنما يضخ الرطوبة لتتعفن الشوارع والأجساد .

ومشت بريطانيا متجهة غرب السويس لتنظر خلفها بغضب . حسب مسرحية جون أوزبورن التي سجلت لحظة التحول والانكسار .

ومع هذا الانسحاب عادت بريطانيا إلى أرذل العمر . وصارت تعاني من أمراض الشيخوخة . تلك الأمراض التي يعرفها الشرقيون منذ زمن طويل . مرض العين البصيرة واليد القصيرة .

وهكذا تشرقت بريطانيا . كان دخولها إلى الشرق إمعانا في التغريب . حيث أمدها الشرق بما تـريد لتكون دولة عظمى . ولكن خـروجها من الشرق ــ ويـا للمفارقـة ــ جعلهـا تتشرق حيـث أشبهت حـالها حـال الشرقيين ، حـال الأسمر الـداكـن ، وبـذا صار الشرق يتمـدد خـارج حدوده الجغرافية ليمنح صفاته للآخرين : العين البصيرة لليد القصيرة . وقصرت يد بـريطانيـا مثلما قصرت أياد أخر ــ أيضاً ــ للامبراطـوريات الأوروبية ، فرنسا وإيطاليا ومن قبلهما أسبانيا والبرتغال وألمانيا وهولندا . ولحقت بهم ممالك الكتلة الشرقية بانهيار سور برلين ومعه الكرملين .

ولما قصرت أيادي هـؤلاء طالـت يد أمـريكا ومـن ثم اتسعـت عينها وانفكت عقدة لسانها لتصبح المطاع المتفرد : Order Order Order

ويتمركـز الغرب أخيرا في ثلاثة حـروف هي .U.S.A وماعداها صار شرقـاً ـ حقيقيـا أو مجــازياً ـ يأتمـر بأمر السيدة ويـــرى ما تراه فيحب ما تحب ويكره ما تكره .

ويبقى أن نقـول أو نتساءل كيـف حاولت أمـريكا أن تتخلـص من التشريق ، وهل نجحت في ذلك . . !

ذاك هو موضوع الحلقة القادمة ـ إن شاء الله .

١١ ـ الاغتسـال الغـربـي

١١ ـ ١ دخـل الشرق إلى بريطانيا وتغلغـل فيها مثل تغلغـل الشاي عبر حناجـر الإنجليز ، وصـارت بريطـانيا مجتمعـاً شبيهاً بـالمجتمعات الشرقية حيث المجـد الغابر يقابله حاضر صعـب ومستقبل مضطرب . ولقد كـان الشاي طـالع انكسـار على الإنجليز . ومنـذ أن أدمنوا تجرع هذا السائل الشرقي في زمن فيكتوريا ـ ملكة بريطانيا وامبراطورة الهند ـ وهم في تراجع متواصل حتى صاروا مثلنا : بعيون بصيرة وأيد قصيرة .

وبما أن للشاي هذا المفعـول التقويضي فإن أمريكا تعاملـت مع هذا السائل الشرقـي تعاملاً يحميهـا من الشرق ومـن سوائله فجمـدت هذا الشاي وأخذت تتعاطاه مجمداً (Ice Tea) لكي تبطل مفعوله وتقضي على سحره وتخلصت بذلك من (حرارة) الشرق . ومن (مرارته) .

على أن تاريـخ أمريكا مع الشرق وتـاريخ حماية نفسها منـه يعود إلى زمن الاكتشاف والغـزو . إذ إن كولومبوس لم يطأ أرض أمـريكا إلا بعد أن غسل يديه ورجليه وذاكرته من كل ما يمت إلى الشرق بصلة . ولقد كان عـام ١٤٩٢ هو عام الاغتسـال الأوربي الأكمل من عـوالق الشرق وبقايـاه حيث تـولت أسبانيـا المسيحية طـرد المسلمين واليهود مـن شبه الجزيرة الأيبيريـه ، وتطهرت أسبـانيا بـذلك عـرقيا ودينيـا وثقافيـا من الشرق وعوالقه . ومن هنـا جاء كولومبوس بوصفه ذلـك الرجل الغربي خالـص الغربيـة ، ومعه حفنـة من الـرجال كـاملي الغربيـة ودخلوا إلى أمـريكا لينقلـوا الغرب النقـي الصافي إلى داره الجديـدة حيث يبـدأ مجد

جـديد لا تشـوبه شـوائب الشرق ولا تخالطه أمشـاج العالم العتيـق ولا أوهامه .

ولكن هذا الغـرب النقي اصطدم ـ أخيراً ـ بشرق من نـوع غريب ، شرق يتمثل في فئات بشرية عجيبة ، سماها كـولومبوس بالهنود الحمر ، وكأنها الشاي الشرقي الذي عرفه الانجليز في آخر أمرهم .

غير أن الفـاتـح الغـربي لا يترك مجالاً للمفـاجـآت ولا لـلاحتمالات ويشرع من وقت مبكر في تطهير مستوطناته الأمريكية من هذه الأجناس البشرية ذات المسمـى الشرقي ، وتبـدأ هناك في الدنيـا الجديدة مـلاحم مشهودة للرجل الأبيض أبلى فيها بلاء لا مثيل له في تاريخ الفتوحات، من أجل التخلـص من الأسمر والأحمر كي يصفو المقام للـرجل الغربي النقي الخالص النقاء .

ومن هنا فإن أمريكا كانت هي الصفحة الأولى في كتاب المجد الغربي الخالص ، وكان اكتشـافها واستيطانها هو النتيجة الأولى والثمـرة الطرية للاغتسال الأسباني الكبير لتطهر أوربا من الشرق وتخلصها منه .

١١ ـ ٢ إن كانـت أمريكـا هي ثمـرة الطهـارة ، طهـــارة أوربـا من الشرق ، فما هي هذه الأرض عند مكتشفها . . ؟

في رسائل كـولومبوس إلى البـلاط الأسباني كانـت أمريكا تبـدو عنده على أنها عذراء / بكـر / مغرية / مثيرة . وتظهـر غامضة / سـاحرة . كلها كنوز من الذهب والذهب والذهب . ومن العبيد والنساء .

وكان يـراها هديـة ربانية إلى أسبانيـا المسيحية ، هذه العـذراء البكر صارت معشوقة تاريخية ، لها فـارس أول ، هو الرجل الأبيض المسيحي

يغـار عليهـا مـن نسمة الهواء ومـن الأشرار ذوي الألـوان الأخـرى غير البيضاء . وكـان كولومبوس ينطلـق من شعور قـاطع بأنه يحمـل تكليفاً إلاهيا بأن يضـم هذه الديار إلى مملكة الرب ، كما قـد لاحظ تودوروف في كتابه الفذ عن (فتح أمريكا) .

وبذا فإن المسيحي النقي التقي قد عثر على (العذراء) . ويكفينا أن نضـع هذه الصـورة المجازيـة في الاعتبـار لنتصور أي عـلاقة ستنشـأ ؛ حينئذ ـ بين المكتشف والأرض . ونتصور موقفه من الآخر المنافس .

إنها علاقة دين وعلاقة عشق .

١١ ـ ٣ لـن يصعب علينا أن نتصـور كولومبـوس بعد أن عثـر على (العذراء) ولسوف نحدس ونتخيل كيـف راح هذا البحار يتصور هذه الهدية القدرية .

لقد كان ينوي غزو الشرق مـن الخلف ولكنه عثر علي شيء لم يخطر على بال بشر من قبل .

وكـولـومبوس رجـل فلكـي جغـرافي مطلـع . اطلع على كـل كتـب الأقـدميين في الملاحة والجغـرافيا . ولم يـر قـط في أي منها أي ذكـر أو إشارة لهذه القارة .

لقد كان يبحـث عن مكان معروف وعـن مكان قديم ، فـوجد ما لم يعرف وما لم يخطر على بال أحد من قبل .

من هنا جاءت (العذراء) وجاءت (المعجزة) . وجاء الحس الالهي في الاكتشاف .

ولذا فإن كولومبوس أعاد صياغـة العالم في ذهنه ورسم خارطة جديدة

للكون . وجعل صورة الأرض على هيئة كرة مستديرة جداً . ولكن على جزء منها يوجد شيء كحلمة امرأة ، وأن هذا الجزء حيث يوجد هذا النتوء هو الجزء الأعلى والأقرب إلى السماء . (ورد ذلك في رسالة منه إلى البلاط الأسباني بتاريخ ١٤٩٨/٨/٣١ ـ أشار إليها تودوروف في كتابه) .

وإن كان كولومبوس لم يقل إن تلك الحلمة هي أمريكا تحديداً إلا أننا نستطيع أن نضع صورة (الحلمة) بإزاء فكرة (الأعلى والأقرب إلى السماء) ، حيث تأتي (العذراء) بكامل صفاتها ـ تكون الأرض أنثى وأوربا هى النهد بينما أمريكا هي (الحلمة) .

وهذا هو تاريخ الهجرة الإنسانية حيث تبدأ الرحلة من الشرق بوصفه الجسد الأول والجسد الأصل ، وتكون أوربا هي التتويج الأول لتغريبة الحضارة ، هذه الحضارة التي تبرز مثل حلمة فوق نهد باسق ويتدفق الحليب وتنضج الأنوثة . هذا الأعلى والأقرب إلى السماء يترجم نفسه أخيراً في ثلاثة حروف هي : U.S.A.

هي العذراء النقية مع عاشقها وفارسها ، الرجل الأبيض وهنيئاً لكولومبوس ماشربه من حليب وهنيئاً لأحفاده ما اصطفوه لأنفسهم من نقاء وصفاء تخلصوا فيه من (الشرق) أولاً في أسبانيا وثانياً في تغريبتهم التي أخذتهم إلى سواحل المكسيك بعد تطهيرها من الأزتيك .

١٢ ـ عقدة الشرق

١٢ ـ ١ يبدو الغرب وكأنه يعاني من عقدة عميقة وقديمة اسمها (الشرق) . وكأن عملية التطهير الكبيرة التي مارستها أسبانيا المسيحية ضد بقايا الشرق فيها عام ١٤٩٢ بطردها للمسلمين واليهود لم تكن لتكفي لتخليص الغرب من الشرق . ولقد انطبع الاستيطان الأمريكي بصراع دائم ضد السكان الأصليين مذ كانوا هنودا حمرا وكأن صفتهم ومسماهم الشرقي هو الذي حرك كراهية المهاجرين الغربيين ضدهم .

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية تجدد هاجس أمريكا ضد الشرقيين فصارت الحادثة المشهورة حيث تولت السلطات الأمريكية حجز كل الأمريكيين ذوي الأصول اليابانية وتم سجنهم ومحاصرتهم في معسكرات مطوقة في مزارع كاليفورنيا .

كل ذلك صار بسبب الخوف من هؤلاء الشرقيين على الرغم من كونهم مواطنين أمريكيين ، وعلى الرغم من أن بعضهم قد استقر في أمريكا منذ ثلاثة أجيال .

وفي مقابل ذلك فإن الأمريكيين ذوي الأصول الألمانية أو الإيطالية ظلوا مواطنين أحرارا ولم يتعرضوا لأي شكوك في إخلاصهم أو في وطنيتهم .

وبهذه المعادلة يتضح أن الغربي هو الأصل وأن الشرقي هو الدخيل . ومن هنا فإن أمريكا تعلن عن نفسها بوصفها وطناً غربياً والمواطنة فيها ليست سوى تأكيد ثقافي وسياسي للغرب ضد الشرق . ولن يكون

الشرقي غـربياً مهما أظهـر من حسـن النوايـا ، ولسوف يـلاحقه أصلـه الشرقي مهما حاول الفرار منه جغرافيا وزمانيا .

١٢ ـ ٢ ولئن كنا قد رأينا أمثلة من تعامل الغرب مع الشرق الذي في داخله (مع الهنود الحمـر ومع السود ومع اليابانيين ، وكلهـم أمريكيون مـن حيـث المواطنة) فـإن الغـرب لا يعجـز عـن ابتداع طـرائق ذكيـة ومبتكـرة في محاربة الشرق الخارجـي . مـن ذلك مـا فعلتـه أمريكـا في تعـاملها مـع الروس . وكـانت أولى وسـائل تدجين هـذا الخصم هـي بانطلاق المصانع الأمريكية بابتكار طريف حولت فيه (الدب الروسي) إلى لعبة حيث مسخت هذا الدب الأبي إلى صورة وديعة هي التيدي بير (Teddy Bear) وصارت هذه الصورة لعبة بيد كل طفل أمريكي يفعل بها ما يشاء . لعبة تشترى وتباع وتهدى مثلما يتم اللعب بها والتلاهي معها وتسخيرهـا لتسلية الطفـل بها إنها دمية مطـواعة تخضـع لإرادة صاحبهـا وتستجيب لمبتغاه . ومـازالت هذه حال الدب الـروسي لدى الأمريكيين إلى أن سقـط الـدب الحقيقـي في الكـرملين وصـار مصيره مثـل مصير الـدمية ، واكتسـب المجاز معنـى دلاليا حقيقيـا حيث صـارت أمريكـا تلعب بالـدب الروسي حقيقة ومجازا ـ في هذا استدعـاء للسلاح البدائي حينما كان السحـرة يرسمون صورة الخصـم ويسقطون عليها مـا شاؤوا من عقـاب تقديـراً بأن ذلـك واقع عليـه حقيقة ، وبـذا تكون أمـريكا سـاحرة جـديدة استطـاعت أن تسحـر خصمها الشرقـي فجعلته لعبـة مسخرة بيدها ، تأتمر بأمرها وتنصاع لرغباتها وترتاح أمريكا بذلك من أحد وجوه عقدة الشرق .

١٢ ـ ٣ ولكـن هل ظل الشرق من داخـل أمريكا سلبيـاً . .؟ وهل قبل أن يكون مادة مطواعة تستجيب لتصورات الغرب عنها . .؟

عندنا عن ذلك أمثلة تصور حال الشرق في داخل الغرب وهذه الأمثلة هي نعوم تشومسكي وادوارد سعيد من جهة ، وفؤاد العجمي وفرانسيس فوكوياما من جهة ثانية .

تشومسكي يهودي من شرق أوربا ، وسعيد عربي من فلسطين ، وكلاهما صار أمريكيا بالجنسية واللغة والثقافة ، ولكن أمريكيتهما لم تمنعهما من رؤية الصورة من كل جوانبها ، وكتاباتهما تكشف عن رؤى نقدية جادة حول الخطاب السلطوي الأمريكي . وهو خطاب ينطوي على نوع من (النفاق الأخلاقي) ويضمر دكتاتورية مبطنة تختفي من وراء جلد الديمقراطية المصرح بها : هكذا يقول تشومسكي في كتاباته السياسية عن أمريكا ، ولا تختلف كتابات إدوارد سعيد عن ذلك في كشفه لخبايا الخطاب الغربي وتضميناته الكامنة في تصوره للآخر وفي تعامله معه ، والآخر هنا هو (الشرق) بينما الذات دائماً هي (الغرب) .

وكتابات ادوار سعيد عن الاستشراق الغربي تكشف عن صورة للشرق لدى الإنتلبجنسيا الغربية تظهر الشرق وكأنه كائن خرافي . وبما أنه كائن خرافي فإن تفسير هذا الكائن ومحاولة فهمه تحتاج إلى تصور خيالي وليس إلى تعامل واقعي . وبذا فإن الشرق يمثل الغياب واللاوجود والموات والفراغ . وهذه الصفات تعني أن الغرب بالضرورة هو الحضور والوجود وهو الامتلاء وهذه معادلة تفضي بالسياسي الغربي إلى أن يستجيب للموحيات الثقافية التي يوحي بها الخطاب الفكري ويكون من حق الغرب ـ بل من واجبه ـ أن يكون وصياً على هذا القاصر ، ولسوف تكون هذه المهمة مهمة أخلاقية وحضارية .

أو لم نر النظام العالمي الجديد . . ؟

أو لم نر ـ من قبل ـ ونسمع عن المهمة الحضارية لأوربا . . !؟

كل ذلك جعل كلمة (الشرق) ليست مجرد (إشارة) بل إنها (أكثر) من إشارة ـ كما يقول ادوار سعيد ـ إنها تحميل ثقافي أدى إلى ناتج سياسي وسلوكي معقد . وتحكم ذلك في علاقة الغرب مع الشرق وزادها تعقيدا .

١٢ ـ ٤ ويأتي العجمي وفكوياما على الصفحة المقابلة لصفحة سعيد وتشومسكي . الأول عربي من جنوب لبنان والثاني ياباني . وكلاهما صار أمريكيا من طراز خالص الاغتراب . الأول صار صوتاً إعلاميا للسياسة الأمريكية خاصة في احتكاكها مع الشرق . إنه يتكلم باللغة التي يطلبها منه الخطاب الإعلامي السائد . ولذا تظهر صورته ويتردد صوته بعد كل حدث يحدث في الشرق الأوسط ، ويقول للأمريكيين ما يودون سماعه ويطمئن ضمائرهم بأن سياستهم مع الشرق هي السياسة التي يفرضها الواقع ومن ثم فإنها عمل أخلاقي وتاريخي صحيح .

أما الثاني فإن كتابه عن نهاية التاريخ يجعل (الديمقراطية الليبرالية) بوصفها طبخة غربية هي غاية المطاف البشري . وهي الذروة التي ينتهي عندها التاريخ ويستريح من مشواره الطويل . ويكون الغرب هنا هو الإنسان وما عداه لما يزل يحبو في طفولة لن ينمو منها إلا بأن يتغرب مع الغرب .

ومرة أخرى نرى صورة أمريكا على أنها (الحلمة) البارزة فوق نهد الكرة المستديرة . صورة رسمها كولومبوس وكررها فوكوياما . مع فارق بين الاثنين . فالأول غربي نقي الأعراق ، ولذا صار له من الأحفاد ما

يكفي لقيـام امبراطوريات غربيـة باسقة تـزداد عدداً وقوة وتغريبـا . أما فوكويـاما فإن عرقه اليابـاني سوف يظل يلاحقه . ولو كـان راشداً أثناء الحرب العالميـة الثانية لـوجد نفسه أسيراً في أحد مـزارع كاليفورنيـا ولن يشفع له كتابه عن نهاية التاريخ . إن العرق الشرقي دساس . والبادي على الغرب أنـه قد تعلـم درساً لا يحيـد وهو أن الشرق خطـر لابد أن يتقى . ولذا فإن تشومسكي يعلن دائماً عن معـاناة متواصلة يعانيها من حرمـانه المستمـر من وسائل الإعـلام الجماهيرية . هـذه الوسـائل التي تستضيف فـؤاد عجمي استضافـات متتابعة قـد تكون أكثر مـن مرة في اليوم الـواحد ، بينما تتجـاهل وجـود تشومسكـي ولا تتفطن لـه أبدا . وماذاك إلا لأن العجمي يتكلـم بلغة السيد بينما تشومسكـي يرى ما لا يراه العم سام .

هذه عقدة مـازال الغرب يعانيها مـن الشرق ، رغم التطهر والتطهير التاريخي ويبدو أن الطهـارة تحتاج دائماً إلى التجدد كيلا يصيبهـا الدنس مرة أخرى .

١٣ ـ الـزواج الـدامـي

١٣ ـ ١ الزواج الدامي عنوان مسرحية للشاعر الأسباني فريدرك جارسيا لوركا تدور المسرحية حول زواج دموي حيث انتهى حفل الزواج بمقتل العريس على يد ابن عم العروسة . وتمضي المسرحية بعد حادثة القتل لتصور الأم التي ثكلت ابنها وقد ثكلت والده من قبله وفقدت كل أفراد أسرتها الذكور بحوادث قتل مماثلة . ولقد ظهرت الأم بعد حوادث الموت هذه ، وخاصة بعد الحادث الأخير ظهرت وكأنها قد أطاحت عن رأسها حملاً ثقيلاً ، فلقد كان خوفها المتواصل على ابنها الوحيد يعذبها ويثقل حياتها بالهواجس والوساوس ، أما وقد مات ابنها فقد صارت حرة من مخاوفها وهواجسها ولم يبق عندها ما تخاف عليه .

وكأني بأمريكا وقد صارت مثل هذه الأم . ذاك لأن ذاكرة أمريكا تنتمي تاريخياً إلى العالم القديم ، وهو عالم مليء بالمعضلات ومكدّس بالأحداث والمفارقات . وصورة هذا العالم القديم لما تزل تلاحق أمريكا بأعبائها وهمومها ومخاوفها .

فهي مثل الأم في مسرحية لوركا ، حاملة هم ومولِّدة قلق . وكما هو الحل عند لوركا فإن أمنا أمريكا لن تجد لنفسها من راحة إلا بعد موت الابن وحينئذٍ تنتهي أسباب القلق .

من هنا فإننا نجد أن أطول استمارة في أي سفارة معاصرة هي استمارة طلب تأشيرة الدخول إلى أمريكا . وفي هذه الاستمارة تجد أنواعاً من الأسئلة . أسئلة عن ماضيك واسئلة عن نواياك ، ومعها أسئلة أخرى

تدور حول صحتك الجسدية وحول صحتك العقلية .أسئلة عن أي مرض معدٍ وعن أي فكر معدٍ . مثل الإيدز أو عضوية الحزب الشيوعي . ولابد أن تجيب على السؤال بجواب قاطع : نعم / لا . ولن تدخل أمريكا إذا لم تجب على السؤال . ولقد حاول جورج أورويل الروائي الانجليزي أن يتلافى سؤالاً عما إذا كان قد سبق له الانضمام إلى الحزب الشيوعي في أي فترة من ماضي حياته ، فكان جزاؤه أن حرم من تأشيرة الدخول إلى أمريكا لأنه رفض الإجابة على هذا السؤال ، ولم تشفع له رواياته ولا سمعته الأدبية ، ولا تعريته للتجربة الشيوعية في روايته الرمزية (مزرعة الحيوانات) .

هل هذه الاستمارة مشروع وقائي للتخلص من العالم القديم بأمراضه الجسدية والفكرية . .؟ وهل هي مشروع جديد لتطهير الغرب وتنقيته ، ولكنه هذه المرة لا يقوم على طرد المسلمين واليهود كما فعلت أسبانيا المسيحية وإنما يقوم على التحصن الوقائي المبكر ضد عدوى العالم القديم وعلله المستحكمة !!!

١٣ ـ ٢ إن كانت أمريكا قد مارست لعبة الحصانة والتطهر فهذا لا يعني أنها ـ فعلاً ـ قد أفلحت في تطهير نفسها وتنقية أرضها من الأبناء العاقين . إن الطهارة الخارجية لا تعني بالضرورة نقاء الجسد داخليا . وهناك أمامنا تجارب ثقافية لاناس كان بيدهم أن يكونوا مواطنين أمريكيين طاهرين ، ولكنهم رفضوا هذه الطهارة وطلبوا البديل القديم.

من هؤلاء الشاعر ت.إس. إليوت ، الذي ولد أمريكيا ونشأ أمريكيا ، ولكنه هاجر عائداً إلى العالم القديم وسلك طريقه مخالفاً مسار الشمس ومعاكسا للسير التاريخي ولقوافل المهاجرين والطامحين .

لقد عـاد قافلاً باتجاه الشرق حيث استقر في (بريطانيـا) بين أحضان العجوز . لقد اختار العجوز وفضلها على الشابة اللعوب .

عاد باحثاً عـن الكلاسيكية ـ وإن كان زعيم الحداثـة ـ وأعلن انتماءه إلى الجذور الأصلية (القديمة) ممثلـة بالدين المحافظ واللغـة الملتزمة ، وتطلـع إلى مستقبل أدبي يحقـق للغـة الإنجليزيـة مجدهـا بأن تصـل إلى مستوى سماه إليوت المستـوى الكلاسيكي ، وهي درجـة يرى إليوت أن الأدب الإنجليزي لم يبلغها بعـد ـ أي أنه يتمادى في الهجرة المعـاكسة ، الهجرة نحو القديم .

هـذا أمريكـي فر مـن حضن الـدنيا الجديـدة إلى حضن العجـوز ، وليـس على مثالـه كان الشـاعر الأسبـاني لـوركا الـذي ذهب في أواخـر عشرينات هـذا القرن إلى نيـويورك . وكـأنه يعيـد حركـة جده القـديم كولـومبوس مهاجراً مـن غرناطـة إلى غرب الذهب والحلـم ، ولكنه لا يفعل مثلما فعل جده إذ يكتفي لوركا بإقامة مبتسرة لا تزيد على السنتين ويعود بعدها متجهاً إلى داره في غرنـاطة ولكنه لا يصل إلى مسقط رأسه حياً ، ولم تستقبـل منه غرنـاطة إلا جسـداً مكللاً بالـدم والموت . لقد قتله ابن عمه ومات الشاعر في زواج دام مثل بطل مسرحيته .

أما تجربته في أمريكا فقد كانـت غزوة فاشلة وفتحاً مغلقاً على عكس فتوحات جده كولومبوس .لقد كانت فجراً لم يتمخض عن نهار . وهذا هو مـوضوع قصيدته عـن (الفجر) وهي قصيدة كتبهـا عام ١٩٣٠ م عن فجر نيويورك ذي الأعمدة الطينيـة والطيور السود . هو فجر يضخ حزناً وكآبة ، ولذا فإنه فجر لا يستقبله أحد إذ إنه فجر ليس فيه صباح وليس فيه رجاء . هناك الطين فحسـب . أما النور فإنـه مطمور تحت

ضجيج المدينة ، بينما يترنح المؤرقون وكأنما قد لفظتهم للتو سفائن الدم المحطمة .

هـذه فقرات مـن قصيدة لـوركا ، مـأخـوذة من ديـوانه شـاعر مـن نيـويورك (١٩٢٩ ــ ١٩٣٠ م) ، وهـي فقـرات تكشف عـن صـورة أمريكا عند هذا الشاعر . وكـم هو الفارق كبير بين هذه الصورة وتلك التي كـان كولومبـوس يرسمها في رسـائله إلى البلاط الأسبـاني ، حيث صورة العذراء والفردوس الأرضي بذهبه وطبيعته (وعبيده وجواريه) .

إن كان كولومبوس قد اكتشف الفردوس الأرضي في أمريكا فإن لوركا لم يجد في فجر نيويورك فردوسـاً ولا حلماً . ومن هنا فإن النقاء المفترض والطهارة المرغوبـة لم تفلح أمام أعين الشاعـر الأسباني الذي رأى الطين ولم ير الذهب ورأى الطيور السـود ولم ير الجواري الفاتنات ، ورأى الدم ولم ير النور .

هذه صـورة من صور أمـريكا في ذهـن شاعر أوروبي ، وهـي صورة قاتمة ولا ريب ، ويقـابلها صور لا تحصى ترسمهـا خيالات المحرومين من أبناء العالم القديم ، سـوف أتعرض لبعضها في وقفات لاحقة ـ إن شاء الله .

١٤ ـ التشـــرق

١٤ ـ ١ طرح الروائي الأمريكي فور فيدال حكاية مثيرة ضمن رواية ضخمة عن جندي أمريكي اسمه جيم كيلي كان أحد المشاركين في حرب فيتنام. وقد تلبست هذا الجندي بعض الأرواح الشرقية، وعاد من الشرق محملاً بهذه الأرواح ، فراح يعلن أن روح فيشيسنو ، أحد قديسي الهندوس قد تلبسته وأعلمته بموعد نهاية العالم في يوم محدد . وحينما حل الموعد اجتاح العالم وباء عظيم قتل البشر وأفناهم ما عدا خمسة أشخاص هم جيل كيلي وزوجته ، التي سوف تنجب له أطفالاً من العرق الآري النبيل ، وبقي معهم ثلاثة رجال حكماء ، ولقد بقي هؤلاء الحكماء من أجل وظيفة محددة، وهي تعليم أطفال كيلي وتربيتهم.

وبعد أن خلا الكون لكيلي وأسرته فإنه ينتقل مرتاحاً ومبتهجاً إلى البيت الأبيض بواشنطن العاصمة منتظراً ولادات زوجته لأطفالها الآريين المصطفين . ولكن زوجته لا تنجب له ما تمنى وإنما تلد له أطفالاً معاقين ، ويكتشف عند ذلك أن الروح التي تلبسته هي روح (سيفا) الهندوسي الشرير وليست روح فيشيسنو الحكيم . ويكون كيلي حينئذٍ قد تسبب في إفناء العالم ولم يتحقق له ما تمناه من بناء جنس عرقي طاهر . ويكون الشرق بذا قد لعب في عقل هذا الفتى الغربي إذ جعله ضحية لرغباته العميقة في النقاء والصفاء العرقي والثقافي .

لابد أن فور فيدال كان واعيا بمشكلة أمريكا مع (الآخر) ويعي

توجس أمريكا من أمراض العالم القديم ، ومن هنا فإن جيم كيلي صار ضحية سهلة لأنه باع نفسه للأرواح الشرقية مثله مثل فاوست حينما وقع في حبائل الشيطان وباع نفسه إلى إبليس في مسعاه لكشف أسرار الحياة.

ويبدو أن الثقافة الغربية ترى وتعتقد أن إبليس مخلوق شرقي ، يتلبس في أسماء وهيئات متنوعة ، ولذا تحرص السياسات الغربية على تسمية إبليس في كل تجلياته الممكنة . ويبدع الخطاب الإعلامي الغربي في مساعدة السلطة السياسية بأن يكشف عن تقنعات هذا الشيطان الذي ربما يأتي تحت مسمى الماركسية أو الإرهاب أو التطرف ، أو غير ذلك من الحيل الشيطانية التي يظل إبليس يبتكرها ويتستر تحتها لكي يخادع الغرب ويتحايل عليه .

ولكن الغرب يعي هذه الألاعيب جيداً وتجربة فاوست ثم جيل كيلي جعلت الغرب لا يلدغ من جحر ثلاثين مرة . وكانت تجربة مكارثي في كشف الشياطين في أمريكا عملاً مشهودا ومشروعاً تطهيريا هو بمثابة صيغة حديثة لمحاكم التفتيش الأسبانية ولكنها صيغة أكثر تحضراً وتمدنا بشكل يليق بمجتمع حديث لا علة فيه سوى أنه يرغب في تطهير نفسه وتنقيتها من وساوس الشياطين وشرورهم .

ولذا فإن سؤال أي طالب لتأشيرة دخول إلى أمريكا عما إذا كان شيوعيا أو قد سبق له أن كان شيوعيا في أي يوم من ماضيه أو إن كان مصابا بمرض الإيدز ، هو سؤال مشروع لأنه سؤال وقائي يحمي أمريكا من إبليس فاوست ومن روح (سيفا) الشرير . ومن حق كل مجتمع ـ أي مجتمع ـ أن يحمي نفسه من كل شر ممكن أو متخيل .

ولكن ماذا لو جاء إبليس على صورة فكرة أو على صورة لوحة فنية . . ؟! وليس على صورة بشر أو عبر أرواح .

لقد وجدت أمريكا نفسها يوما ما في مواجهة مع الشيطان متمثلاً في لوحات فنية رسمها الفنان المكسيكي دييجو ريبيرا على جداريه في مركز روكفيللر في قلب مانهاتن سيتي في مدينة نيويورك . وثار جدل كبير حول هذه الرسوم وما يمكن أن توحي به أو ترمز إليه من دلالات ، خاصة وأن الرسام متهم بالماركسية. واستمر الجدل إلى أن أزيلت الرسوم من جداريتها ، وبقي مركز روكفيللر سليما معافى من الأرواح الشريرة التي تتربص به الدوائر من بين الجدران . ولكن المركز لا يبقى على عافيته تلك مدى طويلا إذ تعفرت طهارته الغربية واختلط صفاؤه الغربي بالسيولة الشرقية حيث اشترته أخيراً الأموال اليابانية ، وصار عقاراً شرقيا في قلب المدينة الغربية .

كيف حدث هذا . . ؟ كيف ضاع المركز من أيدي الغرب ووقع في أحضان الشرق . ؟ هل تلبسته روح شريرة مثلما حدث لجيم كيلي . ؟!

لعل رسوم دييجو ريبيرا قد فعلت فعلها السحري ، فطيرت المبنى من أصحابه إلى يدي الشرقيين .

يحكي جابر ييل جارثيا ماركيز في روايته (مائة عام من العزلة) حكاية طريفة حول خطر التصوير على البشر ، وهو خطر أصاب أحد شخوص الرواية بالذعر الشديد، إذ إن حياة الإنسان تتناقص تدريجيا على أثر تحولها إلى صور محفوظة في لوحات معدنية . هذا ما يعتقده خوسيه أركاديو بوين ديا ، الرجل المذعور خوفاً من تلاشي جسده بعد أن حصدته الكاميرة بوهجها السحري .

هذه حكاية تتجاوب مع ما تعتقده بعض القبائل الأفريقية من أن التصوير الفوتوغرافي يسرق الروح من الجسد .

فهل يا ترى استطاعت رسوم ريبيرا أن تسرق روح مركز روكفيللر وتطير بها نحو الشرق.. ؟!

١٤ ــ ٢ لا أحد يشك في حب الأمريكيين لبلادهم . ومن هذه المحبة تأتي جهود التحصن والوقاية . وقد نجد ــ نحن الشرقيين ـ أموراً كثيرة تثير الإعجاب في التجربة الأمريكية وتغري بالمحاكاة .

ولكننا بإزاء هذا نجد أموراً يصعب علينا فهمها في جمهورية النظرية ، حيث الليبرالية الديمقراطية .

وإنه لخطير أن يكون المرء مطلعاً . إذ إن الاطلاع والقراءة تجعل المقروء الماثل انعكاساً لمقروءات سابقة .

لذا فإن حادثة مركز روكفيللر بوجهيها ، رسوم ريبيرا وامتلاك اليابانيين للمركز ، تستدعي عندي حكاية (ريشة) للشاعر الفرنسي هنري ميشو . والحكاية تقول :

دهش ريشة حين مد يديه خارج الفراش ولم تلامسا الجدار .

«عجباً ، أحسب أن النمل أكله». وعاد إلى النوم . بعد قليل أمسكته زوجته وهزته قائلة :

« انظر أيها الكسول ، لقد سرقوا منزلنا حينما كنت غارقاً في النوم » .

وفعلاً كانت سماء كاملة تمتد من كل الجهات ، ففكر « ياه .. لقد قضي الأمر » .

(ترجمة سامي مهدي مختارات من هنري ميشو . دار المأمون . بغداد ١٩٨٩م ص ٦٥) . .

إن التحصن ثقافة شرقية تخلق جداراً قابلاً لأن يكون غذاءً للنمل أو مادة للصوص . ومن ثقافة الشرق ـ أيضاً ـ أن يعالج الهم بدواء (ريشة) فينام عن الجدار المفقود ولا يصبح الجدار هماً حينئذٍ .

وإن كان ريشة صناعة فرنسية فهل سيجد مكانا في سفن الهجرة نحو الغرب كي يقدم علاجه الناجع في التشرق والشفاء . . ؟!

١٥ ـ خطيئة كولومبوس

١٥ ـ في تراثنا الأدبي تتردد حكاية مجنون ليلى مع الظبية ، حيث صاد الشاعر ظبية جميلة فلما تمعن في عينيها وفي جيدها رآى فيها شبهاً من محبوبته ليلى ، فأطلق سراح الظبية تقديراً لهذا التماثل الجميل .

هذه حكاية عربية تصدر عن ثقافة شرقية وتعبر ـ أيضاً ـ عن مسلك شرقي .

ولعل الثقافة الغربية والمسلك الغربي لا يقبل هذه السذاجة ولا يرتضيها لنفسه . ولذا فإن كولومبوس يتشبث بأمريكا لأنها تشبه عنده ما كان قد قرأ عنه من قبل عن الفردوس الأرضي . وبما إنها فردوس يماثل الفردوس المتخيل فإن كولومبوس يعتقل الأرض ويضمها إلى مملكة التاج الأسباني فرحاً بهذا الصيد الثمين .

إن كولومبوس قد اصطاد أمريكا مثلما يصطاد الصياد ظبية أو طائراً جميلاً وسمينا وهو لم يكتشفها كما أنه بكل تأكيد لم يخترعها . فهي موجودة من قبله وهي معمورة من قبله ، وهي مكتشفة ومفتوحة من قبله . وهذه الجموع البشرية من الهنود الحمر بثقافاتها وحضاراتها المختلفة كانت جموعاً من المهاجرين والرحالة الأوائل الذي قطنوا الأرض وعمروها من قبل أن يكون كولومبوس .

ولا يتميز كولومبوس عن هؤلاء الهنود إلا بشيء واحد فحسب . وذلك الشيء هو تمكن كولومبوس من الاتصال مرة أخرى مع العالم القديم .

لقد كانت الوفود الأولى تصل إلى أمريكا في رحلات وهجرات متفاوتة ثم ينقطع بها السبيل بمجرد وصولها إلى بر الأمان في تلك البقاع الغريبة البعيدة المعزولة . وتعجز هذه الهجرات عن العودة مرة أخرى إلى مواطنها القديمة . ولذا فإن إنجازها الحضاري وفتوحاتها الجغرافية ظلت خارج السياق التاريخي والمعرفي للعالم القديم . لقد كان انجازاً عظيماً ولكن أهلهم وذويهم في مساقط الرؤوس لا يعلمون عن هذا الفتح الجليل .

ولقد كان من الممكن أن يحدث شيء مماثل لكولومبوس لو أن السبل تقطعت به ، ولم يتمكن من التواصل مع أهله في أسبانيا . إذن سيكون مجرد بحار مفقود . غابت شمسه في المحيط وقد تبكي عليه زوجته وبعض أقاربه المحبين أياماً معدودات ثم ينسونه أو يحتسبونه على الله ، مثلما سينساه التاريخ وسجل الذكريات ، بينما سيظل هو هناك في الأرض الجديدة يرتع ويزرع وينجب الأولاد ويبني الأكواخ .

وسوف يكون بناؤه للأكواخ وصناعته للآنية شبيهاً بما تعلمه في مسقط رأسه . ولسوف تتكرر هذه التشابهات والتماثلات لكي تكون لغزاً ثقافيا لمن يأتي من الباحثين الذين سوف ينشغلون كثيراً بالبحث عن إجابات وعن تفسيرات لهذه التشابهات ، تماماً مثلما هو جار الآن عن وجود تماثل وتشابه ما بين حضارة الأزتيك في المكسيك وحضارة الفراعنة في مصر . وبين نقوش الأواني في حوض الأمازون ونقوش الإغريق في اليونان . ولسوف نقرأ عن نظريات عديدة وافتراضات متفاوتة عن تشابهات بين بيوت أسبانيا وما فيها من تأثير عربي وبين مماثلاتها في أمريكا. وقد يقول قائل إن العرب كانوا هنا وهناك . أو لعلهم احتموا بأمريكا من مطاردة أسبانيا المسيحية لهم بعد إجلائهم من الأندلس .

كل هـذا ربما يحدث لو أن كولـومبوس عجـز عن الاتصال بـأهله في أسبانيا بعد عثوره على أمريكا أو اصطياده للقارة المعزولة .

ولكن كولومبـوس عاد إلى العالم القديم وتواصـل مع البلاط الأسباني وعقد حبـلاً متصلاً بين جانبـي المحيط . وهـو هنا يحقق مـا لم تستطعه الأوائل . لقد حقق (الاتصال) .

وهــذا هو الانجــاز الحقيقي لكـولومبـوس . إنه (الاتصـال) . لقـد دخل كولـومبوس التاريخ وسجل اسمـه في دفاتر الجغرافيا بـوصفه أهم جغرافي وأهم بحار في تاريخ البحارة البشرية .

إنـه لم يكتشف أمـريكا كما أنـه لم يفتح أمـريكا . لقد اكتشفهـا أقوام وطوائف بشريـة من قبلـه ، وفتحها أقـوام وجماعات مـن قبله ، ولكنـه تواصل حيث انقطعوا وعـاد حيث تاهوا . وتشبث بـالظبية حينما صادها ولم يطلقها إكراماً لشبهها مع محبوبته .

هكذا أفلـح كولـومبوس حيث تحصّـل على صيد سمين وحيـث فتح البـاب على كل مصـاريعـه لكي يـرتحل الغـرب نحو الغـرب ، وتسير القوافل مطمئنة وموعودة بأرض الذهب والعبيد والنساء .

ولكن ماذا صار لهذا الموقع الغربي الآمن . . ؟

يشير غابر بيـل جارسيا ماركيـز إلى مأدبة عشاء صـارت في المكسيك على شرف الرئيـس الفرنسي ميتران . وفي أثنـاء المأدبة وجـه ميتران سؤالاً إلى الحاضريـن عـن العـدو الـرئيسي الـذي يمكـن أن يهدد وجـودهـم القومي . وكـان الحضور يتكون من مجمـوعة من الأوربيين ومجموعـة من أمريكا اللاتينية .

ولقد قال الأوربيـون إن عدوهـم الرئيسي هو الاتحاد السـوفياتي ، أما اللاتينيون فقد أجمعوا على أن عدوهم هي الولايات المتحدة الأمريكية .

ولو كـان في الحضور ممثلـون للأزتيـك في أرضهم الأم (المكسيـك) لقـالوا إن عـدوهم الـذي أفناهـم ومسحهم مـن الأرض هو الأسبـان . وحينئذٍ لن يكون في مقدور السيد ميتران اقتراح نظام عالمي جديد يلغي فيه العدو الرئيسي .

إن إلغاء العدو يستلزم إعادة عقارب التاريخ من أجل منع كولومبوس ـ أو الاقتراح عليه من أجل مصلحة الألفـة الإنسانية ألا يعيد الاتصال مع العـالم القديـم لكي تظل أمـريكا أرضـاً لمن رغب في الـذهاب دون عـودة ، ولمن أحب التخلص من العالم القديم ومن العدو الرئيسي .

ولكن كولـومبوس أعاد الاتصال فـأوجد في الغرب عدواً رئيسيـاً فاق العدو الشرقي فكانت هذه أكبر خطايـا كولومبوس مثلما أنها أكبر هداياه ومصائب قوم عند قوم فوائد .

١٦ ـ امبراطـوريـة اللغــة

١٦ ـ ١ الـذئـب والخـروف :

لو تقابل ذئب وخروف فلن يجد أي واحد منهما عائقاً يحول بينه وبين فهمـه لنوايـا الآخـر أو لحقيقة الآخـر . إنهما يعـرفان بعضهما البعـض بالغريزة ويتصرفان حسب هذه المعرفة الغريزية .

وعلى هذا ســارت كل علاقـات القوي مـع الضعيف ، حيث تـدفع القوي غرائزه ـ وشهواته ـ نحو الهيمنة على الضعيف والسيطرة عليه .

ولكن . . .

ماذا لـو أن الذئب فكـر في تغيير علاقتـه مع الخروف فبـدلاً من أن تكون محكـومة بالغـريزة الحيوانية يحاول أن يطـور هذه العلاقـة ليجعلها تتخذ صيغة ثقـافية متحضرة وبدلاً من أن يفترس الخروف مبـاشرة ومن دون مقدمات يحاول الذئب أن يدخل مع الخروف في حوار مهذب ولبق لكي يجعله يـدرك أن للذئب قضية معه ، وهي قضية فيهـا من صفات العدالة والمنطق ما يكفي لكي تكون مسألة أخلاقية وحضارية .

وهذا ما تقوله إحدى الحكايات العربية القديمة ، حيث جاء الذئب مرة إلى خروف يرعى في البرية فقـال له : أيها الحمل الغر ألست أنت الذي شتمتنـي وتطاولـت على شرفي وسمعتي ـــ بالقـول المشين واللسان البذيء . . ؟!

فقال الخروف : متى هذا . . ؟

قال الذئب : لقد فعلت هذا في العام قبل الماضي (عام أول) . فرد الخروف وقد عرف حقيقة الأمر: لقد ولدت هذا العام . وإنك أيها الذئب قد نويت الغدر بي (فدونك كلني لا هنا لك مأكل) .

هذا الذئب المتحضر (المتطور) لم يشأ أن يكون حيواناً متوحشاً ، ولكنه اختار طريقة متحضرة في التعامل مع (الآخر الضعيف) فسلك إليه سبيل اللغة واخترع لذلك منطقاً لغوياً يقوم على أسباب ومسببات تبرر التصرف .

هذه حكاية عربية قديمة تكررت في كتب تراثنا ، ويبدو أنها ـ أيضاً ـ قد وجدت طريقها نحو الغرب حيث هاجرت مع الشمس من المشرق العربي إلى فرنسا حيث وجدت لها موقعاً في حكايات (لافونتين) عن الحيوانات . وهذه هي الرحلة الأولى لهذه الحكاية .

أما الرحلة الثانية فإننا نشهدها الآن . وذلك في الخطاب السياسي لأمريكا المعاصرة .

وهو خطاب تحول فيه الذئب القديم إلي ذئب حديث متطور . وتحولت فيه علاقات القوي مع الضعيف من علاقات الافتراس الوحشي إلى علاقات أخرى مختلفة .

لقد تعلمت أمريكا من تاريخ البشرية دروساً كثيرة وأهم هذه الدروس هو درس العلاقة مع الآخر . وصرنا نشهد تحولاً جذريا ونوعيا في هذه العلاقة يشبه تحول الذئب من وحش مفترس إلى خطيب بليغ يداور ويحاور في سبيل هدفه . تحول الذئب من سلاح الأنياب إلى سلاح اللغة . وهذا هو بالضبط ما اكتشفته أمريكا أولاً ثم برزت فيه

ثانياً . ولسوف يكون ذلك علامة من علامات هذه الدولة ، وشاهداً من شواهدها مما يجعلها بحق امبراطورية لغوية فذة .

١٦ ـ ٢ امبراطوريـة اللغـة :

شهد التاريخ امبراطوريات متنوعة لها أسلحة متنوعة ولها أمجاد متنوعة ولكن تنوعـاتها هذه كلها يجمع بينهـا عامل واحد مشترك حينما تتعـامل مع الآخر الـذي هو بالضرورة آخر ضعيف (أو آخر منـافس) ، وهو أنها تتعامل مع هذا الآخر بأسلوب المحاربة والاحتلال (العسكري) . وهذا هو ديدن كل امبراطوريات التاريخ قديمها وحديثها .

أما أمريكا فإنها تقدم لنا نوعاً متطوراً من أنواع المحاربة والاحتلال ، إنه نوع يشبه حـركة الذئب مع الخروف . إنه المحاربـة والاحتلال ـ لا العسكري ولكنه اللغوي .

وفي سبيـل ذلـك لا تتردد أمـريكـا أبداً عـن التخلي عـن سـلاحهـا العسكـري ، إذا أحست بـدواعي ذلـك . لقـد انسحبت أمـريكا مـن فيتنام ومن بيروت ولم تجد في ذلك غضاضـة أو خدشاً في كرامتها . ولم تستـح من التـاريـخ ولا من المستقبـل في تصرفـاتها هذه . كما أن هـذه الانسحابات لم تفـض إلى إنكسار مجد الولايات المتحدة ولو كـانت هذه الانسحابات قـد صارت لإحدى الامبراطوريات القديمـة لكان في ذلك نهاية تلك الدولة المهزومة .

ولكن أمريكا تنسحب ولا تهزم ، ويموت مـن عساكرها آلاف مؤلفة ولا تهزم ، حتى إن رئيسها يقتل ولا يهتز لها ركن أو جانب .

لقد تعلمت أمريكا من الماضين هذا الدرس البليغ ، وهو أن للمجد والسلطة طـريقاً أخـرى غير طريـق العساكـر والجيوش . وتعلمـت أن



الأمم السابقـة فقدت سلطانها على الأرض لأنها اعتمدت على انتشـارها العسكري .

ومن هذا الدرس راحت أمريكا تخترع وسيلة خاصة بها ، لم تستخدم من قبل ، وهي وسيلة (اللغة) كطريق للتحكم بالآخر وإخضاعه .

١٦ ـ ٣ ميلاد اللغة :

يأتي سيناريو اللغة في أمريكا منطلقاً من معمل لغوي متطور جداً ، وهو البيت الأبيـض ، حيث تأتي اللغة على شكـل (بيان) مكتوب ، يلقيه متحـدث رسمي (أو متحـدثه رسمية) بـاسم البيـت الأبيض . ويتم إلقاء هذا البيان بقراءته أمام حشد منتقى من الصحفيين الذين تم اختبارهـم واختيارهم على مـدى طويل ومـدروس . واختيار الصحفيين وانتقاؤهم يقابل عملية انتقاء لغـة البيان واختيارها . حيث إنها لغة تمت صناعتهـا من خبراء البيـت الأبيض ، ويتـم ذلك بعنـاية فـائقة تقـف وراءها خبرة عميقة وتجارب مـوثقة . وتتم صناعة اللغـة وسبكها كنتيجة لهذه الخبرة العميقة . وتتسم هـذه اللغة بصفات الدقـة والعمق والتوازن والغموض المقصود والايحاء المتعمد .

وما إن تنطلق الكلمات من لسان المتحدثة (أو المتحدث) حتى تقع على أسماع بشر مـن ذوي الخبرة . وأول هؤلاء هـم منـدوبوا الصحـف ومحطات الإذاعة والتلفزيون .

وبعـد هؤلاء يـأتي صف آخـر من أهـل الخبرة لهم وظيفة محددة فهـم يستقبلـون (البيان) الصـادر ويأخـذون بعد ذلـك في تأويلـه وتفسيره وتحليله ، وهـؤلاء هم بمثابـة (الكهنة) الذيـن يزعمون لأنفسهـم حق

معرفة بواطن الأمور . ويحتكرون حقوق التفسير . فيأخذون في ممارسة حقهم القـدري هذا وينطلقون يعطون كـل كلمة معنى يخصهـا ، وكل إشارة دلالة تنطلق منها . وهكذا إلى أن يأتي صف ثالث من السدنة ، الـذين يبـاركـون القول ويـرددون كلمات التـأمين والتصديـق ، إلى أن تصبح كلمات (البيان) مصطلحـات سياسية وثقافية وتصبـح علامات صدق وعلامات فعل .

إن ميلاد اللغـة يتم في البيـت الأبيض ، ويكـون الصف الأول مـن الصحفيين المرابطين دوماً عند أبواب القصر الامبراطوري ينتظرون ميلاد الطفل اللغوي . وليس لهؤلاء الصحفيين من أرتباط آخر إذ إن شغلهم الأوحـد هـو الانتظـار الـدائم والمرابطـة المستمـرة ، ولا يتعين في هـذا الموقع، موقـع المرابطة والانتظار ، إلا المحظوظون من بـوابغ الإعلاميين والإعلاميات .

أما الصف الثـاني فهو جماعات من أهل الحكمة والمعـرفة يجلسون في استـوديوهـات التلفـزيـونات في واشنطـن العـاصمـة ، وفي نيويـورك . ودورهـم يأتي بعـد إذاعة البيان وبثه على العالم ، حيث يعيـدون صياغة البيان بلغة الصحافة والسياسة وهم لهذا يمثلون دور (الوسيط) ما بين السيد الامبراطور الذي هو النص الأساسي المتمثـل بالبيان وما بين عامة الناس وجمهـورهم ، الذيـن يعتمدون على هؤلاء (الحكماء) لفهـم لغة البيان ووضع حروفها على نقاطها .

وبعد أن يفرغ هـؤلاء الحكماء من مهمتهم يأتي (السدنة) مـن كافة أرجـاء المعمورة ليشيعـوا الخبر وينشروه ، وليبلغـوه إلى من لم يسمعـه . وهذه الفـرقة تنطوي على جماعـات بشرية لا تحدها حـدود ولا ألوان ،

وكثير منهم مـن المتطوعين الـذين يجدون أن انضمامهـم إلى امبراطوريـة اللغة هذه يعطيهم موقعاً في الخطاب السائد والمسيطر . ولذا فإن كُتاب العالم الثالـث يتدافعون في هذا الطـريق ، وينصاعون إليـه مثل انصياع الخروف في لعبـة الذئب ، ومثـل انصيـاع ضحية شكسبير في مسرحيتـه سيمبلين حيث تصيح الضحية بالجزار وتقول له أرجوك اذبحني .

هـذا ميلاد اللغـة على يـدي حاضنـة متمرسـة وجيـوش من الكهنـة والسدنة يضمنون للطفل الامبراطوري حقوق السلطة والهيمنة .

١٧ ـ الرابطـة الهيـرمسيـة

١٧ ــ ١ إن كـانـت أمـريكـا هـي امبراطـوريـة اللغـة فهـذا يقتضي ويستوجب استخـدام اللغة بطريقة خاصة ذاك لأن اللغـة وسيلة بشرية قديمـة يملكها البشر كلهم دون تمييـز ، ولكن التميـز يأتي عن طـريقة الاستخدام الخاص والتوظيف المختلف . ولقد رأينا في المقالة الماضية أن الـذئب والخروف معـاً استخدمـا اللغـة ، ولكـن استخدام اللغـة عنـد الذئب اختلف عن الخروف . فالخروف أخذ الجانـب الواقعي من اللغة وكان صادقاً وواضحاً وصريحاً. بينما أخذ الذئب الجانب المتخيل واخترع شيئاً لم يكن في الواقع ولا في الصدق ، ومن هنا فإن الصدق أفضى إلى الموت ، أما الخيال (والكذب) فقـد أفضى إلي مكسب سمين ، وأكل الـذئب الخروف بعـد أن طلـب الخروف ذلـك مستسلماً ومسلماً بهذه النتيجة .

إن لغة الخروف في الحكاية لغة طبيعية فطريـة فيها تلقائية وعفوية ، ولذا فقد رد على الـذئب حسب مقتضيات هذه اللغة . أمـا لغة الذئب فهي تمثل نقلة نوعية تنتقل باللغـة من فطريتها (وصدقها) إلى مستوى آخر ، وهو مستوى لم يعد فطرياً ولم يعد صادقاً .

إنه مستوى لغوي عرفته الأسطورة الإغريقية عبر (هيرمس) ، هذا الـذي تنتسب إليـه البلاغـة والتجـارة والاتصال . وذلـك لأن عبقريتـه ومهارتـه في الكذب نبغـت عنده بعـد ميلاده مبـاشرة ، لقد ولـدته أمـه كذابا . وحينما صار عمره يوماً واحدا سرق قطيع غنم من (أبوللو) .

ولم يعترف بهذه السرقة حينما سأله أبوللو عنها حيث قال هيرمس كيف أسرق وأنا لم أولد غير يوم أمس .

وراح هيرمس الوليد يستخدم مهارته في الكذب والحيلة فخدع السلحفاة وجعلها تتبرع بجزء من جسدها ليصنع هيرمس قيثارة من ذلك الجزء . لقد صار هيرمس عند اليونانيين إله البلاغة والتجارة ، والاتصال لأنه نبغ في مهارة الكذب من أول يوم له على الأرض . بينما فقد الخروف حياته لأنه لم يستطع مكافحة كذبة الذئب .

إن أسطورة هيرمس تعطي الكذب موقعاً خاصاً تتأسس عنه البلاغة والتجارة . والاتصال ، ويأتي هيرمس اليوناني ومعه الذئب في الحكاية العربية ، ليجعلا (الكذب) معنى بلاغيا ينتج عنه خطاب القوة والسيطرة .

ولكن الكذب لا يصبح قيمة بلاغية إلا إذا وظف توظيفاً ذكياً بحيث تتخفى فيه صفة اللا صدق ، ويظهر وكأنه حجة منطقية تتلبس بلباس الصدق وتتسمى باسم الصدق . فهذا الذئب العربي يقول إن الخروف شتمه وأهانه قبل سنتين ، حتى وإن كان الخروف قد ولد هذا العام . ومن شرط العدالة والانصاف أن يعاقب المعتدي ، ويحق للذئب أن يقتص من الخروف بالطريقة التي يراها حيث إنه مظلوم ومعتدى عليه هذه هي شروط العدل والحق ، ولذا ينصاع الخروف ويترك الذئب يأكله . فهل هذا كذب أم صدق . . ؟

إنه الكذب الصادق ، الكذب البليغ .

أما هيرمس اليوناني فإنه يسأل بإخلاص كيف أسرق وأنا لم أولد غير يوم أمس ! إن الذي ولد تواً لا يمكن أن يسرق . هذا هو رأي المنطق

والطبع . ولـذا يصبح الكاذب السـارق صادقـاً وبريئاً ، لأنـه استخدم لغة الصدق والمنطق لكي يجعل كذبه صدقا .

هذه ـ إذن ـ هي القيمة البلاغية التي تجعل الخطاب ينفذ ويفعل .

١٧ ـ ٢ نقـول إذن : إن كانـت اللغة ستصبـح اليوم سبباً للسيطرة على الآخر فلابـد من إحياء هذا الجانب الأسطوري للغـة وسوف يكون هيرمس ويكون الذئب هما النموذج الإبداعـي الذي يحقق للغة سلطتها وتأثيرها .

ولذا فإن اللغـة الانجليزية تنتقل مع أمـريكا لتأخذ منزلـة خاصة بين اللغـات . فهي قـد أصبحت سـلاحاً امبراطـوريا يحل محل الـدبابـات والعسـاكر ، ولهذا فقـد صارت هـذه اللغـة تمثل (العـدالة والانضبـاط والقيم الحضـارية) . لقـد قالـت ذلك وبشرت بـه الليدي مـارجريـت تاتشر ـ وذلك في حديث إذاعي معهـا في إذاعة لندن (البرنامج العالمي في ٢١/ ١١/ ٩٣) .

إن صفات العـدالة والانضباط والقيم الحضـارية هي الصفـات التي كانت تطلق على جيوش أوروبـا الاستعمارية . كما أشار ادوارد سعيد في العـديـد مـن دراسـاتـه . وهـا هـي صـارت اليـوم تطلـق على (اللغـة الانجليزية) هذه اللغة التي تربط بريطانيا مع أمريكا ويالفرحة الليدي تاتشر بهذه الرابطة الهيرمسيـة المقدسة . كما أنها تربط آخريـن تميزوا عن غيرهم بهذا الفضـل ، ولذا فإن وكـالة الاستخبـارات الأمريكية تـرسل آلاف الجواسيس إلى كل بلدان العالم باستثناء ثلاث دول فحسب ، هي كندا وبريطانيا وأستراليا .

إن رباط اللغة لا يوحد الجبهة فحسب ولكنه أيضا يطمئن كل طرف

من طرفه الآخـر . ولا شك أن الذئب العربي لو قابـل هيرمس اليوناني فإنه لن يأكله كما أكـل الخروف ، كما أنه لن يخاف على شعر جلده من قيثارة هيرمس ، إن رباط اللغة ـ يطمئن أحدهما من الآخر .

١٧ ـ ٣ إذا كانت (العدالة / والانضبـاط / والقيم الحضارية) هي صفات اللغة الانجليزية فهذا بالضرورة يعني أن كل مفردة من مفردات هذه اللغـة هي أيضاً متصفـة بهذه الصفات الثلاث . ويعنـي أيضاً أن شعوب هذه اللغة هم أهل هذه الصفات وممثلوها .

وهنا تنشـأ علاقة عضويـة بين اللغة ومصطلحاتها مـن جهة ، وبين المتكلمين بهذه اللغة مـن جهة ثـانية ، مع صفـات العدالـة والانضباط والقيم الحضارية .

وفي مقابـل ذلك تأتي اللغـات الأخرى غير هذه اللغـة لتكون مجردة من هذه الصفات . ولتكون بحاجة إليها .

وهذا يعطي السيدة الامبراطورة حق (أو واجب) نشر هذه الصفات على المحرومين منها . تماماً مثلما كانـت جيوش أوروبا تتجه إلى الشرق والجنوب في مهمـة حضاريـة إنسانيـة لتنشر العدالـة والانضباط والقيـم الحضارية .

ويكون ميـلاد اللغة في البيت الأبيض ميـلاداً اسطورياً متجدداً يـوماً عن يوم ليسعـى إلى تنظيم الآخر وإدخاله في جنـة الامبراطور الجديد ، ومن شذ فقد شذ في النار .

١٨ ـ الهرة البيضاء أو امبراطورية اللغة

١٨ ـ ١ يروي أريك فروم في كتابه الجميل (اللغة المنسية) حلما لإحدى السيدات رأت فيه هرة بيضاء وحولها مائة فأرة ، وكانت الفئران بعددها هذا تقف خائفة ومرتعبة من هذه الهرة الوحيدة . ولقد انشغل ذهن السيدة بسؤال ظل يلح عليها وهو : ما الذي يجعل مائة فأرة تخاف من هرة واحدة . . ؟!

من الممكن لهذا السؤال أن يكون واحداً من أبرز علامات التاريخ حينما تسيطر قوة واحدة على مائة أمة أخرى .

وليس بغريب على التاريخ ولا على الثقافة أن يحدث هذا ، ولكن الغريب دائماً هو أن تستنجد الضحية بالجزار وتقول له : أرجوك اذبحني ، كما حدث في مسرحية (سيمبلين) لشكسبير .

هنا تكون المائة فأرة قد أسهمت في خلق الهرة البيضاء وفي تقويتها وتسمينها . وهذا هو ما ظل يحدث في التاريخ كله . وإن كانت أمريكا المعاصرة قد صارت ـ عندنا ـ بمثابة امبراطورية لغوية ، فلا شك أن ما يمثل العالم الآخر قد كان له ـ وما يزال ـ دور أساسي في خلق هذه الهرة البيضاء أو الامبراطورية اللغوية .

إن هذا يحدث يوميا وبشكل تلقائي وفوري بمجرد أن يصدر (بيان) رسمي عن البيت الأبيض ، حيث يتسارع سدنة اللغة لاستقبال تعليمات حكماء البيان حسب آليات الاستقبال والتفسير التي وصفناها في المقالة السابقة ونعطي هنا مثالاً عليها في الفقرة التالية .

١٨ ـ ٢ في سبتمبر ١٩٩٣ م كانت كل فئران العـالم تشاهد شاشات التلفزيون ذات البـث المباشر وأبرز واحدة فيهن كـانت الـ (CNN) ، هذه الهرة البيضـاء التي كانـت تركز عدسـات عيونها الثاقبـة على مبنى البرلمان الروسي ، حيث الدبـابات التي تقصف والرجال والنسـاء الذين يخرجون من المبنى رافعي الأيدي ومطأطئي الرؤوس ، وتقول لنا مذيعة المحطـة إن هؤلاء هـم أعضاء البرلمان الـذين عـزلهم رئيس الـدولة وأمـر بـإيداعهـم السجـون . كما أنه ألغـى المحكمـة الدستـوريـة وعزل كـل معـارضيه وأغلـق الصحـف . وهدد بـالـويل والثبـور لكـل من وقـف معترضاً على قرار مـن قرارته ، ثم ألغـى الدستور وشرع بكتابـة دستور آخر على مزاجه وهواه .

كل هذا سمعناه (وشاهدناه) من على شاشة هذه المحطة الأمريكية التي أذاعـت ذلك بـاللغة الانجليـزية وكانـت كل فئـران العالم تشـاهد وتسمع وأخذ منها الحماس والانفعال مأخذا بليغا حينما شاهدت الحدث لحظة وقوعه وحينما رأت النار تـأكل رأس مبنى البرلمان . وبقي لنا شيء واحـد نســأل عنـه ونتسـاءل حـوله وهــو : يا تـرى ماذا نسمـي هذا الفعل . . . !؟

لقد أصبحنـا عالة على النص الـرسمي على (البيان) ولـن نفهم أو نتنبـأ بحقيقة الحدث إلا بعـد أن نستمع إلى (البيـان) . لقد أصـاب الفئران حالة من الإدمان اللغوي لا تستطيـع معه ربط الدال بمدلولاته إلا بواسطة (البيان) وبعد تفسيرات الحكماء وتبريكات السدنة .

وجـاء البيــان . .

جاء من سان فرانسسكو هذه المرة ، حيث كان الرئيس بيل كلنتون

هناك ، وفيه قال الرئيس إن الرجل الذي فعل تلك الأفعال هو رجل يمثل الديمقراطية في روسيا ، ولذا فإن أمريكا تقف بجانبه .

هنا حدث عندنا مشكلة لغوية عويصة ، تتعلق بما فهمناه من قبل عن معنى (ديمقراطية) وهو فهم معجمي وثقافي . ووجدنا أن فهمنا هذا لا يتطابق مع ما ورد في البيان الرئاسي . ومثل حال كل إنسان يجد نفسه في معارضة مع السلطة فإنه يتوقع معاضدة من فئات أخرى تعينه على تماسكه الداخلي وعلى توازن تفكيره مع واقعه الراهن .

وفي متاهة هذا الانتظار والتساؤل جاءتنا الأخبار بتصاريح من بريطانيا ومن فرنسا ، وبتأويلات من كهنة اللغة في واشنطن ونيويورك تقول كلها إن بوريس يلتسين هو الرجل الذي عنده ــ وحده ـ مفتاح الديمقراطية في روسيا . وأن على الغرب مساندته .

١٨ ــ ٣ أمام لغة قوية كهذه اللغة يقف المرء في مأزق فكري حساس جداً . فإما أن تشك في ثقافتك وفي وعيك ، أو أن تنصاع لشروط اللغة المهيمنة وترضى بمنطقها وتساعد الهرة على تخويف الفئران ، وسوف ترتاح حينئذ لأنك قد أصبحت (معهم) .

فإن استبد بك العناد فستدخل في عزلة تاريخية وثقافية ، حتى وإن ظللت بريئاً ونقياً ومخلصاً للغة التي كنت تعرفها من بطون كتب التاريخ وفقه السياسة (القديمة أو باقي أوراق النظام العالمي القديم) .

ولو قررت هذه العزلة فسوف تتذكر ما كان نعوم تشومسكي يقوله عن (صناعة الإجماع) حيث تسعى المؤسسة الرسمية إلى عزل المعارضين عزلا ثقافيا بحيث يشعر الواحد منهم أنه (وحيد) فيما يشعر به وما يحسه ، وبذا تنعكس آراؤه ضده لأنه سيظل يعتقد أن الناس جميعهم

موافقــون وراضون باستثنــائه هو (بمفــرده) فينتكس على نفسه بــاللوم والسخط .

وتمارس المؤسسة الرسمية في سبيل ذلك وســائل ذكية جداً تحبط فيها التنظيمات العمالية والطلابية ، وبالفعل فإنك اليوم لا تجد في أمريكا أي دور (أو وجود فعلي) لهذه التنظيمات وزال دور نقابــات العمال ومفعول طلاب الجامعــات الذي كــانوا يمارســونه في السنــوات السابقــة . وهذا أحدث فراغاً في صفوف المعارضة وشتت صوتها وفرق صفوفها . وصار كل معترض يعيــش في عزلــة ثقافية ونفسيــة لأنه لا يــرى أحداً يشــاركه الاعتراض . ومن هنــا فإن نوعاً مــن الإجماع الوهمي تتم صناعتــه ويتم الإيهام بوجــوده عبر وسائل الاعــلام وهي وسائل متــواطئة مــع المؤسسة الرسمية في صناعة هذا الإجماع وتمريره .

ولا شك أن مــا لمسه تشومسكـــي في كتــابه (الأوهــام الضرورية ـــ NECESSARY ILLUSIONS) يتجلى أيضاً عبر سيناريو اللغــة التي يمر بها البيــان منــذ لحظة إنشــائه إلى مــراحــل تفسيره ومــن ثم في مــرحلــة استقباله وإشاعته . وسيكون يلتسين حينئذ ديمقراطيا لأن الهرة البيضاء تريده أن يكون كذلك .

وسوف يكون مــن السذاجة الفكرية أن تسأل حينئــذٍ السؤال التالي : إن كان يلتسين ديمقراطيا فمن هو الدكتاتور إذن . . ؟

إن مصطلــح دكتــاتــور سيجــد نفســه في مــأزق دلالي خطير إذ مــن الصعــب أن تجد له معنــى مــادام الــذي حدث في مــوسكــو في سبتمبر ١٩٩٣ م عملاً ليس من أعمال الدكتاتورية والاستبداد . ومادام بينوشيه

يعلـن أن لديـه ثلاثـة مـلايين تشيلي زائدون ، ولم تر امبراطـورية اللغـة مشكلة في دعمه أو التعاون معه .

إن على مئات الفئران أن تظل تخاف من هرة بيضاء واحدة ، وعليها أن تواصـل النفخ في جثـة هذه الهرة إلي أن تصبـح ديناصـوراً يأكـل ما حوله وينتهي بإفناء نفسه بعد أن يفني من هو أضعف منه .

١٩ ـ الأوهـــام الضـــروريـــة

١٩ ـ ١ لا أظن أن أياً من امبراطوريات التاريخ قد حصل لها مثلما يحصـل لأمريكـا اليوم ، حيـث لم يحدث مـن قبل أن سـاد العالم دولـة واحدة لا منافس لها . كما لم يحدث أن بلغت لغة ما مثل ما بلغته اللغة الانجليزية في امتدادها المكاني وفي هيمنتها الاصطلاحية .

ومنذ مطلع عقـد التسعينات صار لأمريكـا دور مطلق في الرأي وفي الحكم وتكفـي كلمات الرئيس ليعم الأرض كـل الأرض مصطلح رئاسي يحظـى بالقبـول والشيوع . ولقـد رأينـا كيف سيطـر مصطلح (النظـام العـالمي الجديـد) بمجـرد أن أطلقـه جورج بـوش . ولقـد شـاع هـذا المصطلح في صحافـة العالم الثالث أكثـر بكثير من شيوعه في أمـريكا . بل إننـا نرى هـذا المصطلح قد غـاب واختفى مـن الخطاب الإعـلامي الأمريكي ، ولكنه مازال ينبض بالحياة والبريق في خطابات أهل الشرق وأهل الجنوب .

ومن الطريـف في الأمر أن العالم لم يتساءل حقيقة عن مصـداقية هذا المصطلح أو عـن واقعيته وإمكانيـة تحققه مـن عدمها . ليـس هذا لأن العالم قد فقـد عقله أو أنه قد فقـد قدراته على التحليل والنقـد ، ولكن لأن العالم يريد أن يعيش في ظل هذا الوهم .

هذا الوهم الضروري الذي يمنح صاحبه حسا بأنه (مع) وأنه (في) وليس (ضد) أو أنه (خارج) السياق .

وبهذا الفعل الذي ينطوي على الوهم يصبح من الضروري للمرء أن

يذلـل نفسه لقبـول توازن نسبـي بين المصطلح كفهـوم مثالي والمصطلـح كمفهوم عملي ـ ولقد أدرك أفلاطون ذلك في جمهوريته وطرح نوعين من العدالة ، أحـدهما عدالة المساواة ، والثـاني عدالة اللامسـاواة . وسمى الأولى بـاسم العـدالة الحسـابيـة . ، والثانيـة هـي العدالـة الهندسيـة . والحساب يـأخذ بتوزيـع الأعداد على بعضهـا البعض بالتسـاوي ، أما الهندسـة فتأخـذ بفكرة (النسـب) فتوزع الأشيـاء بناء على مـرتبتها . وهذا أعطى أفلاطـون فرصة للرضى الذاتي لكـي يقبل بفكرة الطبقات والتمايز بين السادة والعبيد ، من خلال العدالة الهندسية .

وهـذا ينطبق على لغـة الخطـاب الأمريكـي المعـاصر حينما يتم قبـول دكتاتور ما ورفـض ومحاربة دكتاتور آخر ، يتم ذلـك في وقت واحد ولا يحس صانـع البيان (القـرار) بشيء من التناقـض وذلك حسـب مبدأ العدالـة الهندسية (عـدالة اللامساواة) وشكـراً لأفلاطون الـذي أعطى حجة فلسفيـه بليغة تريح الضمير وتـرضي العقل . وتجعل الوهـم حلا مريحاً وبالتالي يصبح وهما ضروريا لما يمنحه لنا من راحة ورضى .

١٩ ـ ٢ جربت الثقـافة البشرية مواقف تشبه مـا نحن بصدده حيث تبدو الأحـداث ذات وجه بريء وصحيح ، وهـي ـ في الوقـت نفسه ـ تنطوي على باطن مريب . وفي مسرحية هاملت لشكسبير واجهت بطل المسرحية أحـداث جسام حيـث مات أبـوه ـ وكـل مخلوق يمـوت ـ ثـم تزوجت أمه ـ ومن حقها أن تتزوج ـ وليس في ذلك من بأس . لولا أن الأم قد تـزوجت مـن عم البطل ، وكـان في الزواج مـا يثير الشكوك . ولقد تشكـك هاملت وبـدأ يتساءل ويسأل ويعلـن عن أسئلته أحيـانا ويخفيها أحيـانا أخري ، وتعـرض لأذى كبير من هذه الأسئلـة ، ولقد

كان بحاجة إلى (وهـم) يرتضيـه ، ولكنه لم يجد وهمـه هذا ، فاختـار (الجنون) ليكون قناعاً يضعه على وجهه ويغطي به عينيه عن النظر إلى أمه وعمه وما يمثلانه من ريبة وشك .

لقد تظاهر هاملت بالجنـون ليكون الجنون رسالة يوجهها إلى الآثمين ، وليكون أيضا هو الوهم الذي يعطيه فسحة من الوقت ويوفر له معنى للبقاء وسببا للتعامل مع الخونة .

كان هـاملت رجلاً واحـدا في المسرح الشكسبيري وهو اليوم يتنـاسل ليصبح أعـداداً من المثقفين والمفكريـن العالميين الذين يـرضون بالـوهم بـديـلاً عن العـزلـة . ومـن هنا فـإن الضحيـة تتـوسل للجـزار أرجـوك أذبحني .

وبواسطـة قبولنا لهذا الـوهم تصبح لغة أمـريكا هي اللغـة الطبيعية ـ عالميـا ـ وما عـداهـا إما أن يجـري في سياقاتهـا فيكون جـزءاً من هـذه (العالميـة المهيمنة) ، أو أن يخرج ليصبـح خارج الطبيعـي والعالمي ، وبالتالي فهو خارج الحضاري .

ولسوف يصبـح المصطلح الأمـريكي قـانونـاً فكريـا وثقافيـا وذوقيا . ويشعر بـالأمان كـل من تحالـف لغويا مـع أمريكـا . وهذا مـا نراه في بريطانيا مثلاً حيث إنها الدولة الأوروبية الوحيدة التي لا تملك أكاديمية لغوية تدافـع عن اللغة القومية . ذلك لأن اللغة الانجليـزية لم تعد لغة قومية خصـوصية ، إنها مع أمريكـا صارت لغة عالميـة تخيف غيرها ولا تخاف وتغزو الآخـرين ولا أحد يغزوهـا . وعلى فرنسا وغيرهـا من دول أوروبا أن تقيم الأكـاديميات وتصرف الأموال على المعاجـم لكي تحافظ على لغتها من الغـزو الأمريكي ومن التهديد الامبراطـوري ، ولكن أنّى

لها ذلك وقـد اتسـع الشـق على الراقـع ، حتى لقـد أصبـح مصطلح (عالمي) و (عالمية) يعني أمريكي وأمريكية . ولا يشعر أحد بعالميته أو عالمية ثقافته وخطابه المعـرفي إلا إذا ارتبط بسبب من أسباب الرضى والقبول الأمريكيين مثلما صار يالتسين ديمقـراطيا حينما دخل في المعجم الأمريكي واندمج في سياق الخطاب الامبراطوري المهيمن .

هذا هو الـوهم الضروري الذي يكفل لصاحبه شبراً في جنـة الدجال العصري .

٢٠ ـ سـارق القمـر

٢٠ ـ ١ في الأدبيات المتوفرة عن المهاجرين الأوائل إلى أمريكا يظهر بوضوح أن الرجل الأوربي قد أدخل إلى الأرض الجديدة ثلاثة أشياء بارزة ، هي :

الكتابة

واللون

والكذب

إضافة إلى أنواع من الأمراض لم يكن الأهالي الأصليون يعرفونها مثل الجدري والكوليرا .

ولم يكن الهنود الحمر يعرفون الكتابة ، ولكنها جاءتهم مع الغازي الجديد ، كما أنهم ذوو لون واحد يطبع بشرتهم ويوحد أوصافهم . وأدخل الأوروبي عليهم لونين بارزين هما اللون الأبيض وهو لون السيد الغازي ، واللون الأسود وهو لون العبيد المجلوبين قسراً من أفريقيا . وبذا تلونت الأرض الجديدة بألوان من السيادة والعبودية .

ومع الكتابه واللون دخلت مهارة لم يكتشفها الهنود الأبرياء وهي مهارة الكذب . وهو كذب من النوع الراقي المتطور على طريقة الذئب مع الخروف أو على الأسلوب الهيرمسي البليغ .

ولقد كانت مهارة الكذب أداة حاسمة في تقرير مصير عمليات الغزو والاجتياح . وأفاد الكذب كثيراً في تحقيق النصر . وكان الهنود ينهزمون دائماً لأنهم لا يعرفون هذه الحيلة البلاغية الماكرة . ومثلما استحوذ

الـذئب على الخروف ، وتمكن هيرمـس مـن أغنام أبـو للـو فقد تمكـن الغازي الأبيض من الأرض وأهلها بحيله البلاغية الراقية .

واكتشـف الهندي الأحمر الكـذب متأخـراً وبـالتدريـج . وتعلم مـن تجربته مـع الرجل الأبيض أن مهـارة الكذب مهارة حضاريـة لها ارتباط ثقافي وديني . وكان الهنـود يربطون ما بين الديانـة المسيحية والكذب . ويورد تودوروف في كتابه عن فتح أمريكا أن كلمتي كاذب ومسيحي قد أصبحتـا تعبيريـن مترادفين عند الهنـود الحمـر وعنـدما (كـان الأسبـان يسألـون الهنود عما إذا كـانوا مسيحيين ، كـان الهندي يجيـب : نعم يـا سيـدي إنني بـالفعـل مسيحي بـدرجـة قليلة ، لأننـي أعـرف بالفعـل الكـذب بدرجـة قليلـة ، ويـوما مـا سـوف أكـذب كثيرا وسوف أكـون مسيحيا بدرجة أكبر ـ تودوروف ٩٨) .

لم يكن هـذا من باب السخـرية ، فـالهندي لا يسخر ، ولم يـك قد عرف صناعة الاستهـزاء مثلما إنه كان يجهل الكذب . لقد كـانت اللغة عنده أداة اتصال بشري فطري بريء ، ولم يستعمـل اللغة كأداة حرب وسـلاح . ولقـد فوجـيء بهذا السـلاح العجيـب الذي هـو شيء مـن مخترعات العالم القديم .

٢٠ ـ ٢ وقـع كولـومبوس مـرة في حصار طـويل أحـاط به السكـان الأصليون مـن كل جهة وتعـرضت حملتـه لخطر بالـغ ، ودام الحصار شهـوراً دون أن تسنـح أي بـوادر لحل المشكلـة . وجـاء الفــرج إلى كولومبوس الـرجل الأبيض المتمكن من ثقافـة الإنسان الأوروبي بما فيها من بـلاغيات وحيـل ، فهو يملـك خبرة عميقة في المعـارف الفلكية ، وتبين له مـن حسابـاته الفلكية إن القمـر سيؤول إلى كسـوف وشيك .

ولذا بـادر كولـومبوس وأعلن تهديـدا صارخاً للهنـود بأنهم إن لم يـرفعوا الحصار فإن كـولومبوس سوف يسرق القمـر منهم وسيحرمهم مـن نوره الليلي الأنيس ، وفي مساء ٢٩ فبرايـر ١٥٠٤م بدأ كولومبـوس في تنفيذ تهديده أمام عيـون الهنود حيث أخذ القمر بالتـلاشي من صفحة السماء وأصـاب الهنـود الـذعـر والخوف فرفعـوا حصـارهـم واستسلـم الخروف للذئب .

٢٠ ـ ٣ تـأخذ حكـاية استخـدام اللغة كسـلاح صورهـا الأولى من الأسـاطير ثم مـن بلاغيـات الغـزاة الكلاسيكيين ، وهـي تتطور اليـوم لتكون سـلاحاً تكنولـوجيا بالغ التعقيـد . ولعبت أمريكـا المعاصرة دوراً متميزاً في تطوير سلاح اللغة ، وفي جعله نظـاماً من الرموز والعلامات يقوم على شبكة مـن العلاقات الداخلية والخارجية ، ممـا يجعل الخطاب يقوم على (بنية) ذاتيـة تغذي نفسها من داخلها وتفـرض وجودها على ما هو خارجها ، وتشكل عن هـذا النظام اللغوي سلطة عالمية تعي أن بقاءها وقوتها لا تتـم إلا بإقصاء الآخر ـ كل ما هو آخـر ـ سواء الآخر المنافـس أو ذلك الآخر الـذي لا يفكر بالمنـافسة واكتفى بمجـرد تجنب سبيـل السيـد المهيمـن . ولم يـك في وسـع ذلـك النظـام اللغـوي أن يتسامح مع الآخر المنافس ولا مـع الآخر المهادن / المجافي فراح النظام يحمي نفسه بواسطة عمليات الاقصـاء لكي يتحقق له التفرد . ويحدث الإقصاء عبر آليـات متنوعة ، وأهمهـا هو تـدجين الآخر وتطويعـه كي يتقبل الايـديولوجيـة التي يطرحها النظـام اللغوي الجديد ، فـإن لم يتم التدجين فإن الآخر يتعرض لعمليات منتظمة من التشويه ومن ضربات متـواصلة لإفسـاد خططه وزعـزعت أركـان وجوده . وهـذه هي أفضـل وسيلة لحماية الذات وسلطان هذه الذات .

وهذا الفعل يعطي الخطاب اللغوي المهيمن إحساساً بالرضى الذاتي تزول معه كل أعراض التناقض داخل هذا النظام . ولن يشعر أي أمريكي قط أن خطابه السياسي خطاب مزودج أو خطاب منافق حيث هو في جوهره ديمقراطي من جانب ودكتاتوري من جانب آخر . وكل قرارات أمريكا السياسية الخارجية هي قرارات استبدادية امبراطورية ودكتاتورية . في حين إنها دولة النظام الديمقراطي داخليا . وليست اللغة سوى هذه الوصفة السحرية التي تسمح لهذا الازدواج من خلال ما تقدمه من ثنائيات أشبه ما تكون بالثنائية الميتافيزيقية :

ديمقراطية / لا ديمقراطية

سوق / لا سوق

حر / مستبد

حضاري / متخلف

وجه للداخل ووجه للخارج ، ولكنهما وجهان لا يتضاربان في وجدان كهنة اللغة ، لأن البنية اللغوية هنا هي بنية هيرمسية (براقماتية) تجعل حماية الذات وتأمين موقعها التاريخي والحضاري شرطاً يبرر سرقة أغنام أبوللو ، وتجعل السارق رباً للبلاغة والتجارة والاتصال جزاء ومكافأة على مهارته اللغوية .

ولهذا صارت اللغة من خلال ثنائياتها الميتافيزيقية هذه تحرص على حسم علاقتها مع الآخر من خلال تحويل هذا الآخر إلى شبيه مماثل ولا تسمح ببقائه كآخر مختلف ، لأن اختلافه يهدد تماسكها منذ أن صارت امبراطورية لغوية .

٢١ ـ المنبهـــر

٢١ ــ ١ بما إن امبراطوريـــة اللغـة لا تعتمـد علي الاجتيـاحـات العسكرية ، فإن عمليات تدجين الخصوم وإخضـاع (الآخر) المنافس و (الآخر) المختلـف لا تتم في لمحـة بصر أو بين عشية وضحـاها كما كان يحدث مـع الامبراطوريـات الكلاسيكيـة . إن سلطان امبراطـورية اللغـة انبسط على الأرض بعـد فترات ليسـت بالقصيرة . ومنـذ الحرب العالميـة الثانيـة وأمريكـا في حالة مـن حالات المعـارك المختلفة ، كـانوا يسمونها بـالحرب الباردة ، وهـي حرب أفكـار وثقافـات وعقول . أي حرب لغة .

وعمليـات السيطـرة فيهـا لم تحدث عن طـريـق واحـدة ، أي أنها لم تحدث نتيجـة للغزو والانقضـاض مـن قبـل الامبراطور اللغـوي بـاتجاه الآخر . ولكنها حـدثت عن طريقين ، أحدهما ابتدأ في أمـريكا متجها شرقاً نحو ما يسمى بالعالم القديـم ، والثاني جاء من شعوب هذا العالم متجها نحـو أمريكـا . وإن كان الطريـق الأول طريقـاً تقليديـا معهوداً حيث يسعى القوي إلى السيطرة وإخضاع الآخرين ، فإن الثاني طريق جديـدة حيث سعـت الضحية إلى الجزار وقـالت لـه : أرجوك أسرع . وهذا هو طريق (المنبهر) كما سنتعرض له في مقالتنا هذه وما سيتبعها .

٢١ ـ ٢ من المفاخر التي يستطيع جـورج بوش أن يظل يرددها باقي عمره ، وهـو خارج السلطة ، هي عبـارته الأثيرة عن (النظـام العالمي الجديد) . هـذه العبارة التي أطلقها بـوش مع بداية التسعينـات لم تك

إلا ثمرة يانعة لسنين من التوله والانبهار العالمي بالتجربة الأمريكية . ولقد ظلت شعوب المعمورة تزحف باتجاه أمريكا إما مهاجرة هجرة فعلية وإما هجرة ثقافية .

والهجرة الثقافية (العقلية) هي التي ظلت تحفز خيالها وعقولها باتجاه الغرب منذ أن صارت أمريكا علامة على العصر وعلى التحضر. ولم يك (النظام العالمي الجديد) سوى هدية سخية من شعوب العالم إلى أمريكا .

لقد انبهر الناس بأمريكا فوضعوا أنفسهم بين يديها ، وهذا هو الطريق المرتد الذي أحدثته لعبة اللغة الإمبراطورية ، حيث صار المرسل إليه ، أداة للرسالة ووسيلة ليس لتوصيلها فحسب ، وإنما للهجرة إليها ـ عقليا ـ والتماهي في صفات المرسل والتطبع بطبعه وتبني ذائقته ومصطلحاته .

٢١ ـ ٣ في عام ١٩٥٧ م راح الروائي الكبير غابرييل غارسيا ماركيز في زيارة رسمية إلى روسيا (التي كان اسمها في ذلك الحين الاتحاد السوفياتي ، ومن صفاتها أنها شعبية واشتراكية) . وذلك لحضور مهرجان الشباب في موسكو . ويبدو أن ماركيز قد جاءته فرص للتجول في أنحاء الجمهوريات السوفياتية، ولم تستأنس نفسه لشيء مثلما استأنس لغياب دعايات الكوكاكولا عن جدران الشوارع وشاشات السينما والتلفاز في هذه الجمهوريات . لقد أحس براحة نفسية عميقة لتخلصه من منظر زجاجة الكوكاكولا ذات القد المصقول والتعريجات المتموجة ، ولابد أنه قد غبط شعوب هذه الجمهوريات على سلامة عيونهم وحصانة أذواقهم من هذه الزجاجة المجنونة . ومرت أيامه هناك

فرحاً بهذه الراحة الفريدة التي لا يمكن أن تتكرر في أي مكان آخر في العالم .

ولكن ...

ويا لحسرة ماركيز الذي لم تكتمل فرحته . ففي آخر دقيقة من مقامه هناك ، وعند لحظة التوديع التفتت إليه مرافقته المترجمة الشابة الجميلة وقالت له بلغة انجليزية تغلفها اللهجة الروسية : سيدي هل لك أن تقول لي كيف هو طعم الكوكاكولا . . . ؟!

هنا ابتدأ الطريق باتجاه الغرب ، وصرخت الضحية تنادي الجزار : أرجوك أسرع . ومنذ ذلك اليوم والنظام العالمي الجديد قد حبلت به بلقيس الشرقية لكي يولد في عام ١٩٩٠ م علي يد القابلة (أو القابل) جورج بوش .

سمع ماركيز هذا السؤال فطار رأسه نحو الغرب ليستعيد نكهة الكوكاكولا ومذاقها فقال لسائلته إن للكوكاكولا مذاقاً يشبه طعم الأحذية الجديدة .

وتذكر تاريخاً من المجد الكوكاكولي في بلاده (كولومبيا) حيث (كان أطباء يصفونها دواء للأطفال المصابين بالزحار . وآخرون ينصحون بتناولها لترميم قوة القلب . كما كان هناك من يؤكدون أن تناولها مع الأسبرين يمنحها مفعول المخدرات ، وذلك حسب تجربتهم الشخصية . أما طبيب أسنان ماركيز فكان يؤكد دون أن يطرف له رمش أنه يمكن لسن مغمور في كأس من الكوكاكولا أن يذوب تماماً خلال ثمان وأربعين ساعة ـ كيف تكتب الرواية ص ١٧) .

٢١ ـ ٤ لقد أحس الكاتب الثائر بريخت بهذا البريق المبهر لأمريكا فقال قصيدته عنها حيث يردد :

أفضل شيء في أمريكا هو

أننا نفهمها

تستحضرها مجرد الأحرف الأولى لاسمها

U.S.A.

كصديق طفولة فريد يعرفه الجميع .

إن صديق الطفولة هذا هو الذي قدم زجاجة الكوكاكولا لتكون سائلا سحريا يسيل لعاب شابة روسية ظلت تحلم بهذا المشروب الخلاب ، وتسأل عنه القادمين من الغرب . وكانت تمارس السؤال سرا وتطرحه همسا وهي لم تسأل ماركيز إلا بعد أن اطمأنت إليه ووثقت به ورشحته من بين البشر كلهم لكي يكشف لها عن هذا الطعم البعيد جداً في أقاصي الغرب . عن هذه القارورة الأمريكية وما تخفيه من مذاق . حيث صارت هذه الزجاجة علامة ورمزا للمفقود المرغوب وللمأمول المتخيل وصارت علامة على تحرك الشرق باتجاه الغرب .

ولم يعد الطريق إلى الغرب طويلاً ولا شاقاً إذ يكفي فيه أن يستمع المرء إلى إذاعة صوت أمريكا لكي يقول : أرجوك أسرع ، أسرع .

لقد طلبت روسيا الكوكاكولا وتمنتها منذ ذلك الحين ، ولكن أمريكا ـ سامحها ربها ـ تأخرت أكثر من ثلاثين عاماً لكي تضع الكوكاكولا في شوارع موسكو ، ليس بدافع أمريكي ، وإنما بطلب روسي . هذا هو طريق المنبهر .

٢٢ ـ كـولـومبـوس يفقـد لغتـه

٢٢ ـ١ هناك عـلاقة عضوية بين أمـريكا والانبهار . ولقد تـأسست هذه العلاقة من الأيام الأولى لـوصول كولومبوس إلى الأرض الجديدة . وكانت رسائله إلى البلاط الأسبـاني تفيض دهشة وانبهارا حينما يصف ما يراه وما يشاهده . وظل ينهل من مخزونه اللغوي ويحشو رسائله بكل ما يملكه مـن رصيد بلاغي في الـوصف والمبالغـة حتى بلغ حداً فقـد معه لغته واستنفـد طاقتـه التعبيرية من البـلاغة الـوصفية . وجـاء في بعض يوميات الرحلة تصـوير لحالة كولومبوس وهو يقف مضطـربا أمام أحد المرافىء الجديدة ، حيث أحس بالعجز التـام عن وصف هذا المرفأ بعد أن استنفد طاقـاته اللغوية في وصـف مشاهداته السـابقة ، وظل يحاول الاعتذار عن مـوقفه هذا قائلاً : (إنه امتدح المرافىء الأخـري امتداحاً عظيما بحيث إنه لم يعد يعرف كيف يمتدح هذا المرفأ ـ تودورف ٣٠) .

ومنذ زمن كـولومبوس وأمريكا تقف في المخيـال العالمي على أنها تمثل الخارق والمبهر . ولقـد كان العـالم في الستينيات يحيـل أحداث التـاريخ كلها إلي التدبير الأمريكي . فكل انقلاب وكل اهتزاز اقتصادي ، وكل هزيمة هي بـالضرورة من صنع أمريكا وتدبيرهـا . وكل نجاح وانتصار لابد أن وراءه مباركة من السيدة القابعة هناك وراء المحيط .

ولم تكن الفتـاة الروسية وهـي تتمنى معرفة طعـم الكوكاكـولا سوى صوت من أصوات لغة كولومبـوس التي ضاعت وتماهت في مديح أرض الأحلام .

وفي ١٨/ ٣/ ١٩٩٣ م وقف رئيس ليتوانيا يرد على هاتف من مذيعة إذاعة لندن تسأله فيه عن الغرب فيرد بانبهار خارق :

الغرب . . . نعم

إنه . . . هدفنا

إنه . . . حلمنا

هذا الغرب الجميل

هذا الغرب الساطع

يقولها بلكنة تذكرنا بفتاة الكوكاكولا وماركيز . غير أن طموح رئيس ليتوانيا لا يقف عند تذوق الزجاجة السحرية ولكنه يتطاول ليطمع بالغرب كله ، الغرب / الهدف والحلم . ذاك الجميل الساطع .

٢٢ ـ ٢ هذه المسافة من يوميات كولومبوس إلى غزليات رئيس ليتوانيا امتداد زماني يكتنز بالحلم حول أمريكا ويتغذى بتنامي حالة الانبهار . التي تمددت زمانيا لأكثر من خمسمائة عام ، وتمددت اجتماعيا من رؤساء الدول إلى حسناوات السياحة ومترجمات الوفود . وإن ينسى أهل ولاية (أياوا) فإنهم لن ينسوا أبدا زيارة خورتشوف إلى ولايتهم في الستينيات، حيث راح يمازحهم ويغازل سماحتهم حينما قال لهم إن أرضهم مخصبة ـ مثمرة ، وإنه لهذا فكر بأن يرسل جرارات تأتي من روسيا لتنقل هذا التراب الخصب إلى هناك . قال ذلك فأضحك الناس وتركهم يجترون هذه الذكرى وهذه المزحة .

تلك كانت مزحة في عز أيام الحرب الباردة ، ولكن برودة الحرب أفرزت نكتة حارة جدا . وخورتشوف كان يعلن عن انبهاره وعن تعطل لغته أمام هذا الانبهار ، وكان يتمنى فعلاً أن لو اجتث أمريكا من

غربها البعيد ووضعها في روسيـا لكي يهنأ بالذهب اللين الـذي يسمونه القمح وتنتجه ولاية أياوا .

وإن كان خورتشوف قد مات دون أن يفـرح بجنة أمريكا فإن ابنه لم يضيع وقت عمـره الثمين في متاهات الشرق فهاجر إلى أمـريكا ليكون مواطناً أمريكيـاً مثلما هاجرت قبله ابنة استالين ، وصـار نسل زعامات الشرق رعايا في الغرب ، في أرض الحلم والانبهار .

ولم يكن من الممكن عمليا لكل روسي أن يهاجر إلى هناك ، ولذا فقد قـررت روسيـا أخيرا أن تنقـل الغـرب إلى أرض الـروس . وجـاءت الكوكـاكولا ولـو كان بـاليد اجتثـاث أياوا وشحنهـا إلى هناك لفعلـوا . ولكنهـم حينما أعجزهـم ذلك سمـوا مبنى بـرلمانهم في موسكـو بالبيـت الأبيض تيمناً وتبركا وانبهارا .

ثم جاءتنـا الصحف العالمية تعرض لنا صـورة (يالتسين) وهو على رأس الطابور المحتفل بفتـح مطعم ماكدونالد في مـوسكو ، وكان وراءه صف بلغ طولـه أكثر من ألف متر . جاءوا كلهم ليتجـرعوا أمريكا في جرعات مـن الهمبورجر وليتذوقوا الكـوكاولا التي لم يقدرها مـاركيز حق قدرها .

٢٢ ــ ٣ دخـل الهمبـورجـر أخيرا إلى موسكـو ليعلـن سيـادة اللغـة الجديدة، وليعلن الامبراطورية اللغوية العـالمية ، حيث تكون رموز هذه اللغـة وشـامـاً يطبـع أجساد البشر بقبعـات الكـاوبـوي على الـرؤوس وسراويل الجينـز على السيقان والمجـد لهذه اللغة التـي جعلت السـاذج والعادي والرديء رمـوزاً ذات قيمة حضارية . ولو كان الهبمـورجر اكلة أفريقية ، والجينز لباساً عربيا والكوكاكولا مشروباً صينياً لاكتشف العالم

الـرداءة فيه ، ومـرارة المذاق ووحشيـة المظهر . ولكـن هـذا كله يـزول بلمسـة سحـريـة مـن عصا الامبراطـورة . وللعـالم أن يقـف في طـوابير موسكـو ليتذوق طعـاما لـو بحثت فيه عـن مذاق لـذيذ أو عـن فائدة صحية أو عن نكهـة طرية ما وجـدتها قط . ولكن العلامـة تظل إشارة حرة لا يكون معناها في جوهرهـا وإنما بما تنتسب إليه وما يمثل وراءها من سياق .

٢٢ ــ ٤ بهذا يكـون العـالم كلـه قد اشترك في كتـابـة هـذه الملحمـة الجديدة ، وجعـل من انبهاره سلّما لأمـريكا لكـي ترقى إلى قمـة مجدها وتعلن أن لغتهـا هي النظام العالمي ، وأن طعـامها ولباسها هـو الذوق الإنساني ، وأن قرارها هو قرار الأمم المتحدة وليس الولايات المتحدة .

نحـن الذيـن صنعنـا هذا المجـد لأمـريكـا ، وكما يقول عبـد الكبير الخطيبي فـإن (أقوى سيطـرة هي التـي تجعل المسيطـر عليه يصـل إلى الاعتقاد بـأن نقطة ومركز وأصـل كلامه هـو نفس نقطة ومركـز وأصل المُسيطر ـ النقد المزدوج ١٥٨) .

٢٣ـ شعــر الرئيس

٢٣ـ ١ يظهر اسم (يوكيو ميشيما) على أنه رمز لضحايا الانبهار بأمريكا . منذ أن أقدم على الانتحار احتجاجاً على اجتياح الثقافة الأمريكية لحياة الناس في اليابان ولعقولهم . ومن المؤسف حقا أن موت هذا الكاتب راح هدرا . إذ لم يؤثر ذلك في شباب بلاده سوى أن زادهم إمعانا في التماهي داخل النموذج الأمريكي . تماماً مثلما كان الشباب الصينيون يرفعون صوراً لتمثال الحرية يعبرون بها عن مطالبهم بالانفتاح والحرية ، ولم يجدوا لغة تمدهم بعلامات للحرية سوى تمثال السيدة الامبراطورة ، التي صارت رمزاً للجميع ولغة للجميع ، حسب ثقافة امبراطورية اللغة الجديدة .

ولقد خرج شباب اليابان في صيف ١٩٩٣ م وهم يتوجون رؤوسهم بتسريحة شعر غير مألوفة في بلادهم . إنها تسريحة شعر الرئيس بيل كلينتون .

ولا أظن سيادة الرئيس كان يحلم قط أن شعره سيكون لغة عالمية . وأظنه كان حريصاً ـ فحسب ـ على جمال مظهره وأناقة طلعته . ولكن حظه كان أكبر من حدود جمجمته فصارت تسريحته شغلاً شاغلاً لشباب اليابان ، ولأخبار الصحف وعروضات التلفزيونات .

ومثلما حصد جورج بوش ثمرة انبهار العالم بأمريكا وترجم هدية العالم إليه بمصطلح مسكوك خصيصا له هو مصطلح (النظام العالمي

الجديد) فإن شعر بيل كلينتون غزا رؤوس شباب العالم واحتل أبرز وأعلى ما في الأجساد الشابة .

هذا الشعر الذي بسببه تم إغلاق مطار لوس انجليس في ذلك الصيف نفسه لكي يتم الرئيس تصفيف شعره في طائرته الرابضة في المطار على يد أحد مصففي الشعر المشاهير هناك . يحدث إغلاق المطار هناك ، وفي الوقت ذاته تقوم الشركات اليابانية بصناعة (باروكة) على طراز تسريحة الرئيس وتسوقها في اليابان وغيرها من دول العالم بسعر خمسين دولارا لكي تظهر الرؤوس كلها حتى الأصلع منها على نموذج السيد الرئيس .

٢٣ ـ ٢ إن كان هذا انبهارا شبابيا ، وطمعاً تجارياً من جهة ثانية، فإن أمر الرئيس بيل كلينتون لا يقف عند رأسه فقط ، ولكنه أيضاً يمتد إلى اسم الرئيس بوصف (الاسم) علامة لغوية أولى هي بمثابة (الفونيم ـ الصوتيم) الأساس . فقد صار هذا الاسم رمزاً عالميا ليس عند صناع السياسة في أمريكا وكهنة اللغة المسيطرة ، ولكن عند فئات هي في أصلها من أبعد ما يكون عن النموذج الأمريكي ـ ظاهريا في الأقل ـ وهي (تنظيمات الإشتراكية العالمية) .

لقد ظهر ممثلوا اليسار العالمي ليعلنوا عن انبهارهم بالرئيس الفتى فقد قال أحد زعماء الحزب الشيوعي الألماني إن بيل كلينتون يكشف عن أن قضية اليسار مازالت حية وأنها لن تتلاشى . وقال رئيس البرتغال الاشتراكي إن كلينتون هو أمل اليسار الساطع .

كل هذه صفات وأمجاد تلحق وتتعلق بالرئيس الأمريكي دون أن

يطلبها أو يتطلع إليها ، إنها تـأتي إليه كواحدة من هدايـا العالم وقرابينه ونذره للسيد الجديد ، ولإمبراطور دولة الامبراطورية اللغوية المهيمنة .

هذا هو شمشون الجديد الذي هـدم أعمدة النظام الجديد ، وتصدر وجه التـاريخ بتسريحة شعـره الساحر ، وبـاسمه الـرمزي الـذي يبعث الأمـل ليس في الـرأسمالية واقتصـاديـات السوق ، فحسـب ، وإنما في الاشتراكية أيضا .

هذه الاشتراكية التي غيرت قبلتها مـن المشرق إلى المغرب ، من رموز اليسار إلى رموز الليبرالية .

يـأتي بيل كلينتـون بوصفـه شابـا نـافس شيخـاً على كرسي العـالم ، فخطـف الكـرسي مـن ذلـك الشيخ الـذي كـان سيـد النظـام العـالمي الجديد، وقيصر الفتوحات الأخيرة الحاسمة التي فتحت المعجم اللغوي العالمي لتجعل هـذا المعجم يتكلم بلغة لا منافس لها ، ولما أتـم تأليف هذا المعجـم وأسقط كـل الخصوم المنـافسين ، جاء هـذا الشاب ليجـد نفسه في ميـدان مصفى ، لا خصوم ولا منـافسين ، ووجد نفسـه مثل أوديب حيث فتحـت مدينة (طيبة) ذراعيها له ووهبتـه العرش وسيدة العرش مقـابل أنـه هزم الوحـش . ولقد هزم الـوحش بـأن أجاب على سـؤال بسيط جـداً لم تتيسر الإجابـة عليـه لأي شخص قبلـه رغم كـل المحاولات ، وكـل الذين سبقـوه أخفقوا في معـرفة ذلك الكـائن الذي يمشي على أربعة ثـم على اثنتين ثم على ثـلاثة . لم يعـرفوا أن هـذا هو الإنسان طفلا فرجلا ثم هرما يستعين بالعصا مع القدمين . لقد أجاب أوديب على السـؤال البسيط المحفوظ لـه فغنم العرش والامبراطـورية . ومثله فاز بيل كلينتون في معركة كانت بدايتها تخوّف كل فحول أمريكا،

ولم يجرؤ أحد على منازلة جورج بوش ، القيصر الفاتح المكلل بالنصر وبالنظام العالمي الجديد . ولكن وحش طيبة كان أبسط من كل ذلك الجلال المحيط به ، وأسهل من تلك الفخامة المهيبة . وسقط قيصر على يد هذا الشاب النظر ، وتقلد الامبراطورية فتى يعد بالتغيير ، ويتكلم باسم الملونين والمنبوذين والشواذ وجماعات النساء ، ففرح به الشباب وتزينوا بزينته ، وفرح المثاليون (الاشتراكيون) ونصبوه رمزاً مأمولا لهم ، بعد أن خابت كل رموزهم .

ولم يجرؤ السيناتور مكارثي على الخروج من قبره ليحقق مع هذا المشبوه .

ويظل بيل كلينتون في مقامه الأعز كأول حرف في الأبجدية العالمية، فإذا قال إن بوريس يالتسين ديمقراطي قال ميتران وميجور ومراسلوا الصحف العالمية ، وأساتذة العالم الثالث : نعم هو كذلك .

ومن لم يفهم فليس عليه سوى أن يدفع خمسين دولارا لباروكة شعر يابانية تجعل رأس لابسها يماثل رأس السيد الرئيس وحينئذٍ سيتفتح رأسه عن معاني ما عجز عن فهمه ، وسيرى ما عجزت عيونه عن رؤيته ، وسوف ينبهر مع سائر المنبهرين .

٢٣ ـ ٣ أمام سلطة هذه الثقافة الانبهارية ، يقف الملاحظ في مأزق نفسي حساس ، فإما أن يقبل بمنطق هذه الثقافة ويتعامى عن تناقضاتها وعن مفارقاتها لكي يكون منسجماً مع السياق الثقافي (العالمي) ومع روح المرحلة ومزاجها ، وهذا ما فعله كل من نقرأ لهم ومن نسمع عنهم من مثقفي العالم (غير الأمريكي) وأقصد هنا مثقفي الانبهار الذي أصبحوا في الواقع هم صناع هذا الانبهار ، وهم من ينتجه .

أو فليس من حـل سوى حل (يوكيـو ميشيما) الذي اختار الخروج ومغادرة المسرح بعد أن أصبحت المسرحية لا تناسبه .

أما محاولة المواجهة والاعتراض فإنها تجعل صاحبها نشازا ثقافيا في زمن الامبراطوريـة اللغوية . وفي البـدء كانت الكلمـة ، وفي النهاية كـانت اللغة بامبراطوريتها المهيمنة .

٢٤ ـ صنع في أمـريكـا

٢٤ ـــ ١ يروي جـورج أمادو في مفكـرته (أوراق أمـريكية) هـذه الطرفة :

خلع الجنرال ثيابه ونزل إلى حوض السبـاحة وكانت عبارة (صنع في أمريكا) MADE IN U.S.A منتشرة على كـل أعضـــاء جسمـه ، وحين سألتُ جارتي الحسنـاء التي كانت تدخن السجـائر الأمريكية بشراهة ، وتنظر إلى الجنـرال بإعجـاب ، عن السبـب في انتشار هـذه العبارة على مختلف أعضاء الجسم ولَم لْم يكتفِ بعبـارة واحدة في مكان واحد ؟ ردت عليّ بجديـة ملفتة للنظـر : هذا للتـأكيد على أن جميـع أعضاء جسمـه أصيلـة وأن أيـاً من هـذه الأعضـاء لم يستبـدل بعضو آخـر مصنـوع في موسكـو مثـــلاً . (ضـد أمريكـــا . ت حتيـة سحـارة ومحمد الظـاهر ص ٨٤) .

إن ذلك الجسد الأصلي هو جسد الجنرال بينوشيه ، وإن كانت هذه الصفة التـي تتحلى بها هذه الصناعة الأمـريكية هي من خصـائص هذا الجنرال حسب مذكرات جورج أمادو فـإنها ـ اليوم ـ قد أصبحت صفة عـالمية ، حتـى إن المصنوع في مـوسكـو أصبح إحـدى مفردات اللغـة الجديدة ، لغـة البيت الأبيـض ، أو الرجـل الأبيض . بـوصفه رجـلاً وليس امرأة وبوصفه أبيض وليس أي لون آخر .

هذه اللغة البيضـاء التي أحكمت صوتها في المعمـورة ، لم تكن وليدة يوم وليلة . إنها تمتـد بجذورها إلى (أفلاطون) في جمهوريتـه وما تحمله

تلك الجمهورية من مبادىء في الحكم وفي التمييز . كما أنها تمتد بما تحققه اليوم من مخترعات لغوية متطورة مثل مخترعها الأسطوري الذي تسميه (السوق) .

وهذا المصطلح السحري الذي يأتي ظاهرياً بوصفه نظاماً اقتصاديا (رأسماليا) يقوم على حرية التجارة ، وهو في حقيقته أحد أركان اللغة الجديدة ، وأحد شروط هيمنتها وسيطرتها . وهو يمثل تحولاً نوعيا في تاريخ العلاقات البشرية ، حيث تنتقل السلطة من الجيش إلى السوق. ولقد كان (الجيش) مخترعاً بشرياً قديما استخدمه الإنسان لغرض سيطرته على (الآخرين) ، ومع الجيش ظهرت أخلاقيات ترتبط بذلك التكوين العسكري حيث الضبط والربط والتراتب الطبقي والطاعة العمياء والخشونة والغلظة . وهذه صفات سادت علاقات الغالب مع المغلوب ، فكان اليابانيون يغتصبون الكوريات ويقطعون أنوف الكوريين الرجال ، حسب مقتضيات الجيش ومفهومه الأخلاقي . (جارودي في سبيل ارتقاء المرأة ٩٨) .

والآن يأتي (السوق) ليحل محل الجيش ويستبدل الأخلاقيات العسكرية بأخلاقيات اقتصادية . فتحل فكرة (الاستهلاك) محل فكرة (الاستعباد) وتأتي مفردات جديدة تقتضيها هذه اللغة الجديدة .

٢٤ ـ ٢ وبما إن للجيش قوانين فإن للسوق أيضاً قوانينه ، وهذا النظام الاقتصادي الليبرالي (الرأسمالي) بوصفه مخترعا غربياً يتحول مع اللغة الجديدة إلى مخترع أمريكي مصنوع في أمريكا ، وذلك من خلال (الدعاية ـ ADVERTIZING) . وفي الدعاية تصل اللغة إلى أعلى مستوياتها وتبلغ أقصى حد ممكن من استغلال طاقاتها التعبيرية

والتأثيرية . وتتحول (الدعاية) إلى مؤسسة صناعية قائمة بذاتها إلى درجة أن (الدعاية) تحتاج إلى دعاية .

وكثيراً ما تسعى المؤسسات الدعائية إلى الإعلان عن نفسها وتحبيذ أفعالها وإغراء المنتجين وجذبهم إليها ، وإيهامهم بأنهم محتاجون إليها ومعتمدون عليها .

وهذا أحدث اغتصاباً جماعياً من نوع جديد . وإن كان الجنود اليابانيون قد اغتصبوا مئات الآلاف من الكوريات والصينيات والفلبينيات ، فإن لغة الدعاية تمارس اغتصابا يوميا ، تغتصب فيه العقول والأذواق وجيوب المستهلكين . وذلك منذ أن أصبح التلفزيون هو المتحدث المطلق في المسائيات المنزلية ، وصارت شاشته هي الصوت المهيمن بما تحمله من (اعلانات) يتفنن صانعوها في لغتها وفي إخراجها وفي مواعيد تقديمها ، بحيث تضخ في رؤوس المشاهدين صوراً لعالم متخيل لا يحتاج تحقيقه إلا لزيارة قصيرة إلى المتجر ودفع بعض ما في الجيب لكي تصبح البضاعة جزءاً من حياة المشتري تتدخل في سلوكياته مثلما توجه ذائقته وعلاقاته مع نفسه ومع محيطه .

بهذا تتم فهرسة المشاهد بإدخاله في نظام من التلقي والاستجابة والتصديق ثم التصرف تبعاً لمقتضيات هذه المنظومة اللغوية .

ومن هنا تصبح (الدعاية) مؤسسة سلطوية تتحكم في الذهنية الاجتماعية وتخضعها لشروط (السوق) . هذا السوق الذي صار هو لغة العصر وذوقه ومقياسه الحضاري والتنموي .

والسوق يقوم على المنتجين وعلى المسوّقين ، وبقاء هؤلاء ونجاحهم يعتمد على المعلن الذي يتولى إحضار الزبائن بإخراجهم من بيوتهم إلى

(السوق) ، وإذا حضروا إلى السيد (السوق) بدأ يحدث فيهم فعله السحري والإبنهاري بحيث تتحول عمليات الشراء من كونها استجابة للحاجة إلى كونها انصياعاً للمؤثر الدعائي . وأنت تشتري لا لأنك تحتاج البضاعة ، ولكن لأنك مدفوع إلى الشراء ومبرمج على هذه الرغبة المستنبتة في داخلك وذلك لكي تكون عضواً في هذا المجتمع الذي تحكمه وتتسيد فيه الدعاية ، ويسيطر عليه السوق من خلال هذه اللغة السحرية ، وذلك المنتج الحيوي ، وهو منتج حيوي لا بوصفه ضرورة معيشية وإنما بوصفه مفردة من مفردات التوافق الاجتماعي مع لغة السوق وضواغطه . (بودريلار ٢٠) .

تشير الإحصاءات الاقتصادية إلى أن تسعين بالمائة (٩٠٪) من الأمريكيين قد توحدت رغباتهم الاستهلاكية وهذا توحد لجماعات من أشد جماعات البشر اختلافا وتنوعاً . مما يعطي مؤشراً واضحاً على سلطان اللغة الدعائية وقوة تأثيرها في تغيير الأمزجة وتوجيه الأذواق .

ومع عمليات التوحيد هذه تأتي عمليات أخرى في تغيير سلم القيم الاجتماعية حيث صارت (المتعة الخالصة) إحدى الأهداف المقبولة والمرغوب فيها ، ووجدت الذات الأنانية سبباً أخلاقياً يبيح لها هذه المتعة الخالصة ويساعدها على الأغراق في الذاتية . ونسيان الآخرين .

ونشأت طبقية جديدة حيث صار الناس يصنفون أنفسهم حسب ما يملكونه من منتجات حديثة .

هذه لغة السوق وأخلاق الدعاية .

وهي لغة جعلت الانتاج والانتاج والانتاج هو الغاية ، وبما إن الانتاج وزيادة الانتاج قد صارت أولى غايات السوق وأولى مبررات لغة

الـدعـايـة فإن اصطيـاد المستهلكين والإكثـار منهـم ودفعهـم إلى الشراء والشراء والشراء يصبح شرطاً لبقاء السوق ونجاحـه ، ومن هنا فإن وزير خارجيـة أمريكيـا يذهـب إلى روسيا في أكتـوبر ١٩٩٣ م ليضـع شروط دولته للتعاون مع الروس ويكـون أبرز هذه الشروط هو تحول روسيا إلى اقتصاديات السوق .

إن امبراطوريـة اللغة تحتاج إلى مـزيد من السـدنة والأتباع والمريـدين لكي تظل اللغة منتجة ومنتجة ومنتجة .

وبما أن (السوق) قد بلغ مرحلة اللاعـودة ووصل ذروة طاقاته فإن وسيلته إلى الاستمرار هـي في تمديد حدوده وتوسيـع دوائره . ولقد بلغ الأمـر حداً صـار معـه انتاج السيـارة وصنـاعتها أسهـل مـن تسويقهـا (بودريلار) ولذا يلزم فتح أسواق جديدة ، ويلزم قيام لغة دعائية ضاربة والمجد للسوق ولامبراطورية اللغة .

٢٥ ـ اسمها التفاحة

٢٥ ـ ١ في عام ١٦٢٦ م جاء وجيه هولندي اسمه بيتر مينوت (MINUET) وحل على الساحل الشرقي من أمريكا ، وتعلقت نفسه بجزيرة خضراء تتمدد وكأنها حسناء تبسط جسدها على ضفاف المياه المحيطة بها . وقد تبدت الجزيرة وكأنها تفاحة كبيرة ، تحركت لها أحاسيس الرجل الأوروبي وراح يفاوض شيخ القبيلة الهندي ويساومه على هذه الأرض العذراء ، وعرض عليه بعض مجوهرات من الأحجار الكريمة تبلغ قيمتها ما يعادل أربعة وعشرين دولارا مقابل أن يتنازل الهندي عن هذه الجزيرة ، ويترك التفاحة للرجل الأبيض .

وتمت الصفقة ، وراح الهندي الأحمر فرحاً بالمجوهرات ، وانصرف الأوروبي بتفاحته اليانعة . وأطلق عليها اسماً يربطه بالأرض القديمة فسماها (نيو أمستردام) .

ويمر الزمن ويستعمر الأبيض التفاحة ويشحنها ببني جنسه إلى أن يسيطر عليها الانجليز ، ويتولى أمرها أحد وجهائهم (ديوك أوف يورك) فيتغير اسم التفاحة ، ويصير (نيويورك) كوسام شرف لحاكمها وسيدها .

تلك هي نيويورك ، هذه التفاحة الكبيرة ، التي كانت بضاعة مزجاة بين رجلين لعب كل واحد منهما على الآخر . ولقد ظن الهولندي أنه قد خدع الهندي بهذه الصفقة ، بينما كان الهندي يبيع أرضاً لم تكن تخصه، حيث إنها قد كانت جزيرة مشاعة قد تركت للصيد ، وكان من الممكن

للهولنـدي أن يأخذهـا بلا مقابل ، ولكنـه دفع مجوهرات بخسـة وفرح بالمقايضة المربحة .

إن كانت هـذه هي حكاية هـذه المدينة في بدايتها فـإنها ـ ولا شك ـ قد ظلـت تطبع كل قصصهـا وحكايـاتها ، وتصنع مفردات تـاريخها . فهذه الجزيـرة / المدينة قـد أصبحت عـلامة تجاريـة وثقافيـة على اللغة الجديدة ، لغـة السوق . وأصبحـت نيويـورك بمثابـة المعجم اللغـوي الـذي يحدد معاني المفـردات ويؤسـس سياقـات لغة السـوق ، ويفسر رطانته .

والتبادلات في هـذه المدينة ليسـت سوى تكـرار للتبادل الأسطـوري الأول بين الشيـخ الهنـدي والمغـامـر الأوروبي ، حيـث مـاتـزال هـذه التبادلات تحدث بين طرفين يظـن كل واحد منهما أنه قـد ضحك على الآخر ، وأخرج منه مكسباً لم يكن في الحسبـان لولا لعبة الذكاء ومهارة الحيلـة ، وكل ذلـك يحدث ـ إذا ما حـدث ـ مـن دون أية احسـاس أخلاقـي . فالـذكاء والحيلـة يبرران العملية مهما كـانت الصفقـة مجافية لخلق الصـدق والأمانـة . وهذا هـو الأساس الـدلالي الذي يقـوم عليه المعجم اللغوي للسوق الذي صارت نيويورك علامة عليه ورمزاً له ومقرا لولاداته ومبتكراته .

هذه التفاحة التـي هبطت بالإنسان من فردوسـه إلى أرض المنافسات والمكابدات وإلى سلطان الحيلة ، ولغة الدهاء والمخاتلة .

٢٥ ـ ٢ « كان يقال إن هذه البوتقة التي لا تكل
تتلقى كل ما يسقط فيها لتحوله
خلال أربعة أسابيع إلي شيء مميز

كل الأجناس التي رست على هذه القارة الممتعة
تخلت بلهفة عن نفسها ونسيت أعمق خصائصها

* * *

فقد أشاع سكان نيويورك فيما بينهم
أن مدينتهم بنيت على الصخر ومن ثم
لا يمكن تدميرها .

هكذا تكلم برتولد بريخت (قصائد بريخت ص ٨٤ / ٨٧) عن هذه المدينة المغروسة في عيون العصر بما إنها التفاحة الكبيرة ، أكبر ما شاهد الناس من الفواكه المغرية . هذه التفاحة التي تجعل طاعميها يتخلون بلهفة عن أنفسهم وينسون أعمق خصائصهم ليكتسبوا خصائص جديدة تجعلهم من مفردات المعجم اللغوي الضخم ، معجم التفاحة والسوق الحر ، سيد اللغات وسلطات الثقافات .

هذه التفاحة الأسطورية التي لا تحتاج سوى أربعة أسابيع كي تحول البشر إلى أشياء متميزة مثلما حولت الهولندي المغامر إلى مستثمر ومضارب تاريخي .

هذه التفاحة الساحرة التي لا تكتفي بأن تسحر عاشقيها ومريديها بل إنها تمسخهم أيضاً . وتقيد خطاهم ، ولذا فإن الداخل إليها مفقود، والخارج منها مفقود ـ أيضا ـ.

وهي لذلك تنشطر من داخلها إلى مدن وإلى عوالم وإلى تفاحات ، فيها الصغير والمتعفن مثلما فيها الكبير والمتجدد .

ومثلما كان في قلب مدينة برلين جدار يفصل بين أيديولوجيتين وعالمين متمايزين ، وهو جدار محسوس وقائم ، فإن في نيويورك جداراً

أعرض وأسمك . وهو جدار يقوم ما بين هارليم وۆول ستريت . إنه حائط سميك وطويل وعميق . جدار نفسي واقتصادي وثقافي . له لون وله تاريخ وله نفسية وله شخصية وهوية قائمة ومتنامية . يفرق بين جنس وجنس ولون ولون ورصيد ورصيد وثقافة وثقافة وهموم وهموم .

جدار شاهق الطول بليغ العمق لا يجتازه سوي أهل المواهب الخارقة والحظوظ الضاربة ، أو اللصوص المهرة ، أو السواح المبهورين الذين يرون ما لا يُرى ويشاهدون ما لا تصدقه العيون ولا يهجس به الخيال .

هذه التفاحة الساحرة التي تبدع ما هو فوق المتخيل ، وتمنح ما هو فوق المتصور ، تأتي أيضاً في وجه آخر لتمنع وتحجب وتحرم ما هو هين سهل عند غيرها من مدن المعمورة . إنها المدينة التي لا مدينة مثلها ، وهي التفاحة التي لا تفاحة مثلها .

٢٥ ـ ٣ على مشارف الرؤية من نيويورك ينتصب تمثال الحرية بوجه سيدة أوروبية بيضاء تنظر شاخصة بعينيها باتجاه الوطن الأم (فرنسا) وتمنح ظهرها لأمريكا ، وبهذا الوجه وبهاتين العينين تستقبل القادمين إلى أرض التفاحة الكبيرة ، ويقف الناس صفوفاً لكي يدخلوا إلى جوف السيدة ، وكأنهم بذلك يعودون إلى رحم الأم ، فيدخلون إلى الرحم المعدني ثم يخرجون منه ، بعد أن يكونوا قد اختلسوا نظرات عبر وجه السيدة نحو البحر المحيط وشواهق العمارات التي تطرز جبين التفاحة .

ويخرج الناس أفواجاً ـ بعد ذلك ـ من جوف السيدة ، وكأنما يحملون صكوك ميلاد جديد يجعلهم أبناء هذه السيدة الحديدية (البيضاء) ، وينعمون بعد ذلك بحريتهم المعدنية ، ويمتطون السفينة عائدين إلى

نيويورك يبسطون أيديهم وقلـوبهم ويسرحون أقدامهم في هذه الأرض ، حيث يتخلون بلهفة عن أنفسهم وينسـون أعمق خصائصهم بعد رحلة التعميد الدورية ، عبر جوف السيدة المعدنية .

ويبقى المال . . .

وتبقى السلطة . . .

وتبقى الملذات . . .

ومن وراء ذلك كله جدار طويـل ما بين وول ستريت وهارليم . وما بين مبنى الأمم المتحدة وأطفال أفريقيا وفتيات البوسنة .

والمجد للسيدة الخرساء والرحم المعدني .

٢٦ ـ الجريمة بوصفها لغة

٢٦ ـ ١ تظهر أمريكا بوصفها (امبراطورية اللغة) وتظهر قوية ومتماسكة وكأنها حقا بلد الحلم البشري أو هي الفردوس الأرضي ـ كما سماها المكتشفون الأوائل ـ .

ولكن هذه الصورة المتماسكة ليست سوى الوجه الخارجي فحسب ، وفي الداخل تأتي تكسرات وتهشمات كثيرة هي بمثابة لغة داخل اللغة . أو لهجات داخل اللغة الرسمية . أو ربما نقول إنها مثل اللحن اللغوي والشذوذ التعبيري . غير أن هذا اللحن صار يزداد ويتزايد حتى بدأ يحدث اختراقات فادحة في النص الدرامي الأمريكي . وبدأ الممثلون يخرجون عن النص كثيراً . وخروجهم يأتي على صورة موت وانتحار وقتل واغتصاب واغتيال . وأمريكا التي لم يواجهها أحد قط من خارجها صارت تنزف من الداخل نزيفاً قاتلاً ولقد قتل عدد من رؤسائها بأيدي مواطنين من أبنائها . وعدد القتلى في عام ١٩٩٢ م بلغ أربعة وعشرين ألف قتيل ، ماتوا بسكاكين ومسدسات أمريكية فالأمريكي يقتل الأمريكي في شوارع أمريكا وفي بيوتها . وهؤلاء المقتولون في عام واحد يعادلون ضحايا أمريكا في حرب الخليج ستين ضعفا .

هذا لحن يفسد قواعد اللغة ويهشم النص .

لقد كان أوديب الأسطوري واحدا ، حيث قتل أباه خاطئاً غير قاصد وكان ضحية قدر محتوم حكم عليه مثلما حكم على أبيه . أما

أوديب أمريكا الجديد فهـو متعدد ومتعمد ويمارس قتل الأب بضراوة لا هوادة فيها .

إن السلطة تفـرز عقاربها ، والتفـاحة تفـرز من البكتيريـا ما يكفـي لإفساد كل تفاحات المعمورة . ومـن هنا فإن (الجريمة) في أمريكا لا تأتي بوصفها نقداً للأوضاع أو معـارضة للنظام ، ولكنها تأتي من حيث هي أحد أعراض هذا الوضع الملحمي .

يقول اكتافيو باث عن ذلك :

« إن المنظور الـروحي للغـرب يدعـو إلى الحزن ، فالسـائد الآن هو الابتذال والسطحية ، وانبعاث الخرافات ، وانحطاط العنصر الشهواني ، والتلـذذ في خدمـة التجـارة ، والحرية التـي تحولـت إلى قـوادة لوسـائل الإعلام . ومـع ذلك فإن الإرهاب ليـس نقداً لهذا الوضـع ، وإنما هو أحـد أعراضـه . فإزاء نشـاط المجتمـع الذي يمضي شبـه نائم ، وهـو يـدور آليـاً حـول إنتـاج الأشياء بصـورة لا تنقطـع ، نجـد الإرهـاب يعـرض نوعا من الخبل لا يقل سكوناً وإن كان أكثر هدما ـ زمن الغيوم ص ٢٩) .

هل هـي مسابقة باتجاه الهدم ، هـدم المنظور الروحي ، هـذا النظام الذي تبنيه اللغة الإعلامية لتجعله وعداً خـارقاً لطالبي الهناءة الذاتية ، فيتحول من حافز انتاجي للمصانع إلى حافز تدميري لهواة الإجرام . !؟

٢٦ ـ ٢ تطغـى أدبيات العنف على وسـائل الإعلام الأمريكيـة حتى لقد أصبحـت لغة الجريمة ومفـرداتها من أبـرز المواد الاعلامية كـل يوم وكل ليلة . فالأخبار السياسية تقـوم على العنف حيث يتم حل مشاكل العـالم بالـدبابـات والصواريـخ . وأفلام التسليـة تعتمد العنـف كأحـد

وسائل الصناعة السينمائية وأحد أساسات الحبكة الدرامية ، وأبرز تحديات فنون الإخراج وتقنيات الصنعة . ويتجاوب مع ذلك ما يرد في النشرات المحلية من أخبار عن المحصلة اليومية من حكايات الجرائم الفردية في الشوارع المجاورة والمحيطة بالمشاهدين .

في السنوات الماضية (في الستينيات) كان في أمريكا غضب منظم ، يتجلى في الغضب السياسي متمثلاً بحركات السود في الجنوب وفي الشمال (ميتشجن وديترويت) حيث انتفض السود ضد القهر الاجتماعي والسياسي ، مثلما خرج طلاب الجامعات يعبرون عن غضبهم على النظام واعتراضهم عليه .

وكان بجانب ذلك نظام إجرامي محترف يقوم على جماعات منظمة تعرف أهدافها وتجيد الوسائل إلى ذلك ، ومن خلال هذين النظامين : الغضب المنظم والإجرام المنظم ، كان عامة الناس يعيشون حياتهم بحدود واضحة ما بين الأمان والخطر .

ولكن ذلك كله اختفى مع الزمن ، حتى لم يعد الآن أي نظام للمعارضة السياسية حتى كأن لا وجود لها . ولم تعد الجريمة كذلك منتظمة في نسق معروف . فزالت بذلك الحدود بين الأمان والخطر . حتى لقد صار المجتمع كله تحت عنوان كبير يتمثل فيه الخطر كأبرز علاماته ، ويتعرض الأطفال والنساء إلى تهديد يومي متصل . ولا يسلم القوي ولا مجال للتحصين ضد هذا الخطر ، فالقتل العشوائي صار بعض ما يمكن توقعه وحدوثه في أية لحظة ، ولم يعد بالشيء الغريب أو الشيء الذي يمكن تجنبه .

لقد تحول الفردوس الأرضي إلى جحيم ، وصارت الحدائق الغناء

والغـابات المعشبـة مـراتـع للمـوت والاغتصـاب . وصـارت كلمـة (الاغتصاب) أهم مفردة في المعجم اليومي للنساء في أمريكا .

٢٦ ـ ٣ تكتسب الجريمة في أمريكا صفـات النص الإبداعي . فهي تقوم على التفنـن الإبداعـي والتفرد الإعجازي ، وكـل جريمـة مبتكرة تحدث تأثيراً يشبه تـأثير النص الإبداعي الخارق ، فيجـري تقليد النص ومحاكاتـه ويتسع هـذا التقليد . فـإذا تعرض أحـد المطاعـم إلى عملية اطلاق نـار عشوائيـة تنتهي بقتـل الزبائن ثـم انتحار القـاتل فـإن هذه العمليـة ذاتها تتكرر في فـروع هذا المطعـم ذاتـه في أماكـن متنوعـة وفي أوقـات متتاليـة . حـدث هـذا لمطاعـم مكـدونـالد في السنـوات العشر الحالية، بينما لم يتعرض أي مطعم آخـر لمثل هذه الحوادث ، ذلك لأن النـص الأصلي قد استهـدف ذلـك المطعم بـالـذات فجـاءت المحاكـاة مطابقة لشروط الإيداع الأول .

ويتعرض السـواح الأجانـب ـ الآن ـ في أمريكـا إلى عمليات قتـل يكرر بعضها بعضاً بدءاً من فلوريدا حيث النص الإبداعي الأول ، إلى كافـة الولايـات حيث نظـام (المحاكـاة) وشيوع مفـردات النص ولغـة الخطاب المبتكر .

يموت السواح قتلاً على أيدي أفراد مجرمين وكأن أمريكا تعلن بلسان فصيح عن رفضها لـلآخر الخارجي ، تماماً مثلما كانت القبـائل البدائية تقتل الطارئين عليها وتسلب أموالهم .

لقد صـارت الجريمة علامـة من علامات الحيـاة الأمريكية ، تـواطأ عليها الـوعي العام ورضي بها ، وعـرفت أمـريكا بهذه العلامـة . حتى إنها لم تعد عجباً أو معجباً يثير الأسئلة أو القدح .

وسواء شاء الأمـريكي أم لم يشأ فإن الجريمة قد أصبحـت لغة داخل اللغة ، وأصبحت علامـة فارقة تميز المجتمع الأمريكـي وتخصه . ليس لأنها لغـة اعتراض واحتجـاج على النظام ، وإنما لأنها وجـه مـن وجـوه التنوع العريض ، لأنها أحد نصوص الملحمة الكبيرة .

وما كانت الجريمة في أمريكا ـ قط ـ في أي ماض من ماضيها تعبيراً سياسياً اعتراضيـا . سواء الجريمة المنظمة أم الفردية ، ولم تكـن عصابة المافيا تمثل خطابا سياسيـاً أو اجتماعيا اعتراضيا أو احتجاجيا . ولم تكن نقداً للنظـام ومؤسساته وفلسفتـه ، وإنما كانت تنظيما يقـوم على عناصر المصلحة والكسـب والسلطة ، تمامـاً مثل العقلية التجـارية التـي تحكم نظام (السوق) لولا أن أباطرة السوق يكتفون بالدهاء والحيلة كوسائل لتحقيق الغايـات ، بينما تسمح المافيا لنفسها باستخدام وسـائل إضافية تختصر لها المسافـة والمدة وتعجّل بالنتائج . وكـذا حال الجريمة الفـردية وما ترتبط به من تحقيق سريع للمتطلبات الفردية المادية والإمتاعية .

لذا تـأتي الجريمة في أمريكـا لا بوصفها لغة مضـادة ـ أو لغة نقـدية اعتراضية ـ ولكنها ـ فحسب ـ لغة داخل اللغة ، لهجة مصاحبة تتناغم مع شروط الدراما ونظام الحبكة ، وإيقاعات النص .

٢٧ ـ تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين

يروي أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار حادثة واقعية عن ثقافة الصليبيين وذهنيتهم البدائية ، فيقول : « ومن عجيب طب الصليبيين أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمى يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه ، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى : قال : أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة، وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة ، ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطبت مزاجها ، فجاءهم طبيب إفرنجي ، فقال لهم هذا ما يعرف شيئاً يداويهم . وقال للفارس : أيما أحب إليك ، تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين . .؟ قال أعيش برجل واحدة . قال : أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً ، فحضر الفارس والفأس ــ وأنا حاضر ـ فحط ساقه على قطعة خشب كبيرة . وقال للفارس : أضرب رجله بالفأس ضربة واحدة تقطعها فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ، فما انقطعت ، وضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته .

وأبصر المرأة فقال هذه امرأة في رأسها شيطان ، احلقوا شعرها ، فحلقوه وعادت تأكل من مأكلهم ، الثوم والخردل . فزاد بها النشاف .

فقال : الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ الموسى وشق في رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر العظم ، وحكه بالملح فماتت في وقتها .

فقلت لهم : بقي لكم إليَّ حاجة . .؟

قالوا : لا .

ويختم أسامة بن منقذ حكايته بالتعليق التالي :

(وكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا* وعاشروا المسلمين) .

لم استفتح المقالة بهذه الحكاية من أجل التذكير بمصائر الثقافات وتقلب الحضارات ، ولا للتعرض للماضي البدائي للإنسان الغربي ، ولكنني استحضرت الحكاية بسبب جملتها المركزية في سؤال الطبيب الأفرنجي لمريضه : تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين . ولقد اختار المريض العيش بالواحدة ، وكان اختياره هذا سبباً لموته .

كان الفارس المريض يمثل الوضع الطبيعي للنظام ـ أي نظام ـ من حيث إنه يسير برجلين أثنتين . وحينما تنازل عن هذا الشرط الطبيعي اختل النظام فيه وانتهى نهاية متوقعة من ناحية وتراجيدية من ناحية أخرى .

وكم تترائى لنا صورة أمريكا ـ اليوم ـ وكأنها تشبه حال ذلك الفارس الصليبي القديم .

لقد كانت أمريكا على خيار بين أن تعيش السلام برجل واحدة ، أو تعيش الحرب الباردة برجلين . ولقد كانت مرحلة الحرب الباردة أقرب ما تكون إلى الوضع الطبيعي تاريخيا وسياسياً ، حيث كان وجود الخصم القوي بمثابة الحافز الحضاري والثقافي ، وبمثابة العين الناقدة والفكر

(*) تبلدوا تعني أنهم سكنوا البلاد ، أي سكنوا بلاد المسلمين وتخلقوا بأخلاقهم وأخذوا بحضارتهم.

المحرض ، وكان لـذلك فوائده الايجابية على أمريكا نفسهـا ـ مثلما كان مفيداً للعالم الثالث ـ .

كانت أمـريكا تحقق مكاسب ثقـافية وعلمية بسبب تلـك المنافسة ، وكانت تشحـذ قرائح علمائها وسياسيهـا لمواجهة التحدي المتواصـل من المنافسين الأقوياء ومن الخصوم المتربصين والمبارزين .

وكان العالم الثالـث ينعم بلعبة تشبه لعبة الدلال عنـد الأطفال حيث يفـرون إلى أمهم إذا خـافوا مـن أبيهم ، ويستـدرون عطف أبيهـم إذا بخلت عليهـم الأم . ولقد كان لذلـك أثره في توازن الكـرة الأرضية ، وفي تقاسم الأدوار وتوزيع التوترات .

كان ذلك كلـه حينما كانت أمريكا برجلين وتعيـش في حرب تسمى الحرب الباردة ، لأنها حرب أفكار وعقول ومصارعة أفكار وفلسفات . ولكن أمـريكا اختـارت أن (تعيش) بـرجل واحـدة . كحال الفـارس الصليبي . وهـذا خيار تبـدو عليه مظاهـر الكسب والفـوز ، ولكنه في حقيقته خيار تراجيدي .

لقد قـررت أمريكـا أن تعيش برجـل واحدة وذلـك بتصفية المنـافس (الخصـم) الخارجي مـن جهـة ، وتصفية المعـارض الـداخلي من جهـة أخرى .

ومثلما أن أمريكا اليوم بلا خصوم (أقوياء) في الخارج فإنها أيضاً بلا معارضـة سياسية (واضحـة وقوية) في الـداخل . وهذا جعلهـا سلطة مطلقة ، لا تقوم على الدكتاتوريـة كما هو معهود في السلطات التقليدية المطلقة ، وإنما تقوم على (الأنانية) و (الفردية) و (تصديق الذات) ومركزية (الأنا) .

هذه هي صورة النظام السياسي في أمريكا اليوم ، وهو نظام يصنعه ويتحرك به البيت الأبيض ، بوصفه دارا ودائرة للرئيس والكونجرس (مع مجلس الشيوخ) حيث يقف الحزبان السياسيان على (رجل) واحدة ، لا تختلف قفزاتها ولا مواطئها على الأرض . وليس هناك في حقيقة الأمر تعارض جوهري بين رجال الحزبين على العكس مما هو قائم في بريطانيا أو فرنسا مثلا حيث التعارض الواضح ما بين المحافظين والاشتراكيين ، مع وجود فواصل جلية بين يسار ويمين ووسط .

أما في أمريكا فليس هناك يسار بكل تأكيد ولم يكن في تاريخها كله موقع لليسار . ولقد كان اليمين الأمريكي واضحاً وجليا حينما كانت أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي بوصفهما كتلة يسارية قوية . أما وقد اختفت هذه الكتلة فإن اليمين الأمريكي لم يعد يميناً . إذ لا يكون يمين إذا لم يكن في مقابله يسار .

هكذا تتحول أمريكا إلى فارس برجل واحدة ، ويختفي الصوت المعارض والصوت الناقد ، وهذا ما جعل الروائي اوكتافيو باث ينعى على الغرب اختفاء النقد من خطابه الراهن (المرجع السابق ٢١) وسكوت كل صوت غير صوت الذات صاحبة السلطة المطلقة والحكمة القاطعة ، حيث تكون (نهاية التاريخ) ويأتي الرجل الأخير مع فوكو ياما ، ولكنه يأتي برجل واحدة وبعين واحدة وبلسان واحد .

هذا خيار اتخذته أمريكا لنفسها ودفعت بالعالم نحوه وفرضت قبوله والرضى به داخليا وعالميا .

هذا فارس برجل واحدة . . . !!!

٢٨ ـ هي مكسيكية وأنا أبيض

٢٨ ـ ١ هي أغنية شعبية أمريكيـة ، تروي قصة حب وأدها العرف وقتلتها الثقافـة ، هي عن رجل أبيض عشق فتـاة مكسيكية ، ولم يكن لهذا الحب من أمـل في مواجهـة الثقافة التـي تميز بين الألـوان ، وتجعل اللون عرقـاً وهوية ، ولا يسعها التسامح مـع العنصر الأقل ذي اللون المختلـف ، وانتهى الحب مـوؤدا ، وبقي منـه هذه الأغنيـة التي تبـث شكواهـا وتكشف عن ثقـافة المجتمع وصلابـة حدوده وفواصلـه : هي مكسيكية وأنا أبيض .

تـأتي الحدود لتفصل بين جنـس وجنـس بناء على لـون البشرة . لأن الأصفر والأسمر وصـاحب اللون المخلوط ليس بمنـزلة الأبيض ، وعلى النجار أن يظل نجارا ولو خـرج عن ذلك اضطرب المجتمع ، مثلما أن العبد لا يمكن أن يصبح سيدا . هذا ما يقوله أفلاطون في جمهوريته ، ولذا فإن المكسيكية لا يمكن أن تكون زوجة لرجل أبيض . وعلى حب كهذا أن يموت وله ـ فحسب ـ أن يبقى حكاية اسطورية يرددها المغنى الشعبي ليـؤكد بترديـده هذا أن الحدود أقـوى من العـواطف . فـاللون جنس وثقافة ، به تتقرر الفواصل وتنشأ الحدود .

٢٨ ـ ٢ لم يكن اللون يمثل علامة عـرقية أو ثقافية في أمريكا ، إلى أن جاء الرجل الأوروبي جالباً معه اللون الأبيض واللون الأسود .

جاء الأبيض سيداً ، وجاء الأسود عبـدا . جاء الأبيض غازيا وفاتحا يحمـل معـه إرادتـه واختيـاراتـه ، وطموحـاتـه . وجـاء الأسـود مكبـلاً

بالسلاسل مأسوراً لا يملك خيارا وليس بين يديه طموح ، بعد أن ضاعت منه معالم الطريق وعلامات المكان ، إذ ليس في ذهنه أية علاقة بين أرضه التي كان فيها ـ هناك في الفضاء البعيد ـ وهذه الأرض التي حل فيها . لا يملك أية معرفة عن المكان ولا عن الأسباب ، ولا يملك أية وسائل للخلاص أو العودة . حتى لو حدث أن قال رجل أبيض لأحد السود اذهب فأنت طليق ، فإن ذلك لا يعني للأسود سوى مزيد من الضياع . والعبودية أرحم من هذا الضياع .

هنا نشأت في أمريكا علامتان بارزتان : أبيض وأسود ، إنهما لغتان مختلفتان ، ولكل واحدة منهما معجمها الخاص ، وحدودها الواضحة . وما أشد الشبه هنا بين أمريكا وجمهورية أفلاطون ، حيث السادة من جهة والعبيد من جهة أخرى ، وحيث النظامان الصارمان اللذان لا يمكن التداخل فيما بينهما . لقد أشارت الإحصاءات التاريخية عن المجتمع اليوناني ، أن عدد العبيد بلغ أربعمائة ألف رقيق ، في مقابل مائة ألف مواطن حر . (أي أن كل مواطن حر كان يستمتع بعمل أربعة أرقاء في المتوسط ، ولم يكن هؤلاء الأرقاء يستخدمون في الخدمة المنزلية وحدها . بل كان منهم الزراع والرعاة ، ولكن استخدامهم الأكثر شيوعاً كان في مجال الحرف والصناعات اليدوية واستخراج المعادن . وكان الصناع المهرة ، إذا تيسرت أحوالهم ، يشترون العبيد ويدربونهم على أداء أعمالهم آملين أن يجيىء اليوم الذي يتسنى لهم فيه أن يتقاعدوا ويعيشوا على عمل هؤلاء الأرقاء . وقد تحدث سقراط عن العبيد وربط بينهم وبين الأرض والعقار بوصفهم مصادر للدخل الذي يأتي بلا عمل ـ فؤاد زكريا . دراسة لجمهورية أفلاطون ٨٦) .

إن كان هذا هو وضع المجتمع الأثيني في القرن الرابع قبل الميلاد ، فإن الصورة تتكرر عبر إدخال اللونين الأبيض والأسود إلى أمريكا، حيث يأتي السيد ومعه عبيده ، ويتم فتح الأرض التي هي الفردوس الأرضي ، حسب تعبير كولومبوس لكي تكون فردوساً لأحد الألوان ومعتقلاً جهنمياً للون الآخر .

٢٨ ـ ٣ هكذا وجد السود أنفسهم في معتقل كبير ، لا يعرفون كيف وقعوا فيه ، وكيف دخلوا إليه . ولذا فإنهم لا يعرفون كيف يخرجون منه ، وإلى أين يفرون . لقد صار المكان مغلقاً عليهم منذ أن كانت ظروف أسرهم واختطافهم من بلادهم الأصلية ، ثم طرائق تجار الرقيق في تغليف المخطوفين وتعليبهم داخل ظلمات محكمة مما جعلهم يفقدون الصلة بالمكان والمسافة والاتجاهات ـ كما وضحت وكشفت لنا رواية (الجذور) لألكس هيلي ـ فصاروا إلى مصير لا يعرفون عنه شيئاً، ودخلوا في هذا المعتقل المقطوع عن أي وسيلة ارتباط مع المكان السابق ـ والزمان السابق ـ .

هنا صاروا حيث لا مفر ، وحيث العبودية التي لا مخرج منها . فما الحل إذن . . ؟

لم ينقطع الأسود عن المكان فحسب ، ولكن انقطع أيضاً عن لغته وعن دينه وعن ثقافته . وحاصره الرجل الأبيض حصارا تاماً ، حاصره بالأرض وبالثقافة وبمصدر الحياة والبقاء .

من داخل هذا الحصار راح الأسود يتحرك بإرادة السيد وامتنعت عليه سبل الانعتاق . وصار أمام خيار حاسم : إما الاستسلام والرضوخ وإما الموت . وليس بالإمكان غير هذين الخيارين .

ولكن الأسود بوصفه بشراً يملك كل ما يملكه البشر الآخرون من الحس والطموح راح يحاول فك قيوده . وتعلم من مأزقه هذا بعض الحكمة التاريخية والحضارية المثيرة ، وهي أن يناضل من داخل السجن حينما أعجزه أو استحال عليه الخروج من المعتقل .

فقد الأسود لغته ودينه وأرضه ، ولم يجد أمامه سوى لغة الأبيض ودين الأبيض ، وهذه الأرض التي تمكن منها الأبيض وسيطر عليها .

وبدلاً من أن يعيش الأسود أخرس بلا دين وبلا أرض ، راح يتبنى اللغة والدين وتقبل هذه الأرض التي لا يعني جمالها وبهاؤها الخارق لهذا الأسير شيئاً سوى أنها ضرورة قسرية لمعاش قسري .

أخذ اللغة البيضاء وحولها إلى انجليزية سوداء وأخذ دين الرجل الأبيض ، وحوله من خلال الحركة والصوت والانفعال وتوترات الجسد وتنهدات الترجيعات الصوتية وراء الخطيب ، حول الدين إلى حركة تعبيرية تتكلم بمشاعر الإنسان الأسود وتنفعل بتحركاته وألوانه . وصارت الكنائس السوداء أرضاً داخل الأرض وفضاءً داخل المعتقل مثلما صارت اللغة على لسان الرجل الأسود ذات لون وصوت مختلف ، يختلف في مفرداته وفي استعاراته وفي تركيبته النحوية والصوتية .

وصنع الأسود ألوانه الخاصة وموسيقاه الخاصة ، وبذا صار اللون ثقافة ولم يعد مجرد علامة فارقة ، وصار اللون تعبيراً ولغة ، بعد أن كان سجنا .

قام الأسود بتهشيم السجن من الداخل ، حينما تولى تقويض اللغة البيضاء ، وهذا علامة على نضاله ضد المستعمر وضد سلطان السيد .

وفـرض نفسه بـوصفه شعبـاً (آخر) مختلفـا ، حيث اخترع لغـة يعبر بواسطتها عن نفسـه : عن وجوده وعن اختلافه . هـذه لغته الخاصة ، بها ومنهـا تنشـأ الـذات (الأنـا) السـوداء بخصـوصيـة تكسر سلطـان المتسلط ، وتخلـق للذات أرضـاً فوق أرض الرجـل الأبيض ومعبـداً من داخل معابد البيض ، وموسيقى من داخل معازف السادة .

تعلم الأسود أنه لكي يتعامل مـع سجانه الأبيض لابد أن يتعلم لغة (سـلاح) هـذا السجـان ، فتعلمهـا . وكـان هـذا التعلـم بمثـابـة الاستسلام والانـدماج الثقـافي ، غير أن الأسود تدخـل مع هـذه اللغة وتصرف فيها إلى أن صنع مـن داخلها لغة تخصه ـ لغة مـن داخل اللغة ، إنها فردوس مـن داخل الجحيـم . تعلم السـود كيف يتعـاملون مـع الظرف فابتكـروا وجودهم داخل العبوديـة ، تحرروا في وسط المعتقل . إنها حكمـة سوداء لم يكتشفهـا الأبيض ولم يتعـرف عليهـا أفلاطـون في جمهوريته .

٢٩ ـ سجن اللغة

٢٩ ــ ١ في عام ١٩٥٧م جلب العلماء نحلاً أفريقيا إلى البرازيل لأغراض الدراسة والبحث . وفي عام ١٩٩٣ م وجد الامريكيون في الولايات المتحدة أنفسهم في مواجهة مع أحفاد النحل الأفريقي الذي انتشر في أمريكا وأخذ يهدد حياة الناس حتى لقد مات رجل من لدغة إحدى هذه النحلات ، وهو من نوع (النحل القاتل) . ولم يعد أمر مواجهته ومحاربته بالأمر السهل ، فهو منتشر في كل مكان ، ومختلط بغيره من أنواع النحل الأخرى . وكل محاولة لرشه بالسم سوف تقتل معه النحل الأمريكي المنتج للعسل . ولم يعد أمام العلماء سوى أن يحاولوا ترويض هذا النحل ، بواسطة التدخل البيولوجي ، بعد أن تيقنوا أن هذا النحل القاتل باق معهم وأنه سوف يتكاثر شاؤا ذلك أم أبوا . لقد جلبوه من دياره قسراً وطغيانا فأخذ يتناسل في أرض المهجر ، واستوطن هذه الأرض ونما فيها ، واختلط بغيره من الأجناس ، حتى صار جزءاً من قاطني هذه البقاع .

هذه حالة تشبه حالة السود الأفارقة الذين جلبهم الرجل الأبيض إلى أمريكا لأغراض نفعية ولكي يكونوا مصادر لدخل يأتي بلا عمل ـ كما هم عبيد أثينا ــ فتكاثر الأفارقة وتناسلوا إلى أن أصبحوا نحلاً قاتلاً يلسع من يؤذيه ويدافع عن نفسه . واختلط بالناس والأرض حتى صار أمر التخلص منه محالاً . وكل محاولة للمساس به سوف تمس الجنس الأبيض أيضاً . وكما أن أمريكا الآن لا تستطيع التخلص من النحل

الأفريقي فإنها أيضاً لا حيلة لها مع هذا الشعب الأسود الذي كبر ونما حتى صار وجوده إحدى العلامات الثقافية والحضارية لأمريكا .

٢٩ ـ ٢ وكما أن العلماء الآن يحاولون ترويض النحل الأفريقي فإن أمريكا سعت في الماضي إلى إعادة صياغة الإنسان الأسود حسب ثقافة الأبيض فجعلته يغير دينه ، كما تشير رواية الجذور حيث تحول الأفارقة من دينهم الأصلي وهو الإسلام إلى النصرانية ، وتكلموا بلغة السيد ، وتخلقوا بعاداته . وظلوا على هذه الحال ، إلى أن اكتشفوا علاقات المكان وعرفوا الرابط الجغرافي بين مهجرهم وموطنهم الأصل . وكانت هذه معرفة مفقودة ، إذ لم يكن السود يعرفون موطنهم الأم ، وكانوا قد فقدوا الصلة مع جذورهم ، وانقطع فيهم المكان .

ولما عرفوا علاقات المكان وروابطه بدأت تعود إليهم جذورهم ، وصار عند كثير منهم محاولات للعودة لحضارة الإنسان الأسود ، فاستعادوا دينهم ، واستعادوا لباسهم ، واستنبتوا لأنفسهم مصطلحاً جديداً يصف حالهم التي هم فيها ، وهو مصطح (الأفارقة الأمريكيين ـ Afor Amiricans) ، حيث الإشارة إلى الأصل التاريخي الحضاري وإلى الواقع الراهن . إنهم أفارقة وإنهم أمريكيون ، في الوقت ذاته . وعلى قدر واحد .

٢٩ ـ ٣ من الممكن للمرء أن يستعيد دينه وأن يستعيد لباسه ، وكأن هذه عملية اكتساء بعد تاريخ طويل من التعري المعنوي والجسدي ، الذي يحيل إلى زمن الضياع ونسيان علاقة المكان وروابط الجغرافيا . ولكن الذي لم يتمكن الأفارقة الأمريكيون من استعادته هو (اللغة) .

ربما لأن اللغة تمثل أرقى حالات الاختلاف وأشد حالات الانفصال والاستقلال . وهم لا يريدون ، ـ أو لا يستطيعون ـ الاستغلال عن المجتمع الأمريكي .

إنهم مختلطون ومتداخلون مع هذا المجتمع لدرجة أن الأبيض لا يستطيع أن يتخلص من هؤلاء الأفارقة ، كما أن الأفارقة لا يستطيعون التخلص من الأبيض . ولذا ظلت اللغة الانجليزية هي لغة الأفارقة الأمريكيين .

لقد صارت اللغة قيداً شبه أزلي يحاصر الإنسان الأسود في أمريكا ويستحوذ عليه ، وتظهر اللغة الانجليزية وكأنها الخيار الوحيد ، الذي لا خيار سواه أمام الأفارقة الأمريكيين . إنها التعبير المتاح وهي أيضاً السجن المتحرك . ولذا صار السود يتكلمون وهم في حالة حصار وجودي مطبق ، ويأتي كلامهم (لغتهم) متوتراً ومنفعلاً وعلى درجة من التحدي يبلغ حد العدوانية مع اللغة المنطوقة والمكتوبة .

إنها لغة المتسلط ، وإنها سجن الأفريقي ومادة عذابه الطويل . وهو ينتقم من هذه الأداة بتهشيمها وتمزيقها من الداخل ، حتى لكأن اللغة الانجليزية في حالة نزيف دموي على لسان المتحدث الأسود . تتكسر قواعدها النحوية والصوتية ، وتدخل فيها مفردات ومجازات لم تكن من طبعها ومن ثقافتها ومزاجها . إنها مثل الجلد الأبيض حين تعضه النحلة الأفريقية . وهي تشبه جدار السجن حينما يشرع المسجونون بنبشه والحفر من تحت أساساته لكي يخترقوه ويخرجوا إلى فضاء الحرية .

٢٩ ـ ٤ يحكي برنارد شو طرفة عن أحد السود الأمريكيين الذي زار بريطانيا وسأله أحد الانجليز .

هل أنت محافظ . . ؟

تبسم الرجل الأسود وأجاب : سيدي كيف يمكن للسود في أمريكا أن يكونوا محافظين . . ؟! ما الذي نملكه في أمريكا حتى نحافظ عليه (ضد أمريكا ص ٩٦) .

إن اللغة ليست لهم ، ولا هي من ثقافتهم . إنها لغة المتسلط ، وهي المعتقل التاريخي الذي وقعوا فيه ، ومازالوا مقيدين بقيوده ، ومشروطين بشروطه . ولذا فإنه من غير المتوقع أن يحافظ السود على لغة الرجل الأبيض ، إذ ليس من المتوقع أن يحافظ المسجون على قيده أو أن يغذي سجانه .

لقد استثمر الأفارقه الأمريكيون لونهم الأسود ووظفوه توظيفاً حضاريا متطوراً كوسيلة من وسائل التمييز والاختلاف ، ومن ثم صار أداة للنضال والمطالبة بالحقوق من جهة وبالوجود المتميز من جهة ثانية . حتى لقد أصبح اللون الأسود بمثابة الرأسمال الرمزي الذي يلجأ إليه الأفريقي في كل مرة تضيق به شروط الحياة البيضاء ، وأثمر ذلك ثماراً واضحة وتاريخية .

كما أنهم فتكوا باللغة فتكاً لا هوادة فيه منذ أن كانت اللغة هي الرمز الباقي واللازب في جسد الإنسان الأسود ، وهي القيد الذي لافكاك منه إلا بتمزيقه . ولا أظن أمبراطورية اللغة قد شهدت أو ستشهد مثل هذا الاختراق الحضاري الذي يمارسه المساجين ضد ساجنيهم ، مثلما

تعض النحلة جلد مغتصبها وآسرها ، فتجعله ينط ويثب ألماً وعجزاً عن فعل أي شيء ضد هـذه الحشرة الأفريقية القاتلـة . إنها تلسعه وتؤلمه ، وهو الذي جلبهـا وحبسها هنا ، ولم يعد قادراً على التخلـص منها ومن لسعاتها .

٣٠ ـ هـذا الـثـور الـمجازي

٣٠ ـ ١ أسس أفلاطون جمهورية نظرية وضعها في كتاب ، وظل هذا الكتاب وثيقة ثقافيـة عالمية تتسرب أفكاره إلى التاريخ والـواقع فتظهر في صور مختلفة وتحت مسميـات متنوعة ، ولكن العنصر الأكثـر بروزاً فيها هو أنها جمهوريـة للأقوياء وللسـادة ، أما الضعفاء والعبيد فلهـم قانون يخصهم ويؤطرهم على هامش الاعتبار . بل إن أفلاطون يدعو إلى ترك الضعفاء والمرضـى يموتون ، ودعـى إلى قتلهم إذا اقتضـى الأمر . وفي ذلـك يقول : (يجب أن يعتنـي الأطبـاء والقضـاة بالمواطنين مـن ذوي الطبائع الجسميـة أو النفسية السليمـة ، أما من عـداهم فسنـدع منهم أولئك الـذين اعتـل جسمهم يمـوتون ، وسيقضي المواطنـون ذاتهم على أولئك الذين اعوجت نفوسهم وانحرفت طبائعهم) .

هذه جمهورية تشبه جاهلية البدو عنـدنا الذين إذا عزموا على الرحيل من موقـع إلى موقع لا يكلفون أنفسهـم عناء حمل المرضى الذيـن أزمن مرضهـم ولا العجزة من كبـار السن أو من بـه مس من الجنـون ، لقد كانوا يتركونهم مع شيء من الزاد والماء ويرحلون تاركين لهم فرصة الأمل الأخير إمـا الشفاء واللحـاق بالـركـب ، وإما الـراحة بـالموت الهادىء وحيدين في الصحراء .

إن الحياة للقوى والسيد عند أفلاطون وعند البدو ، وهي كذلك ـ أو تكـاد ـ في ظـل النظـام السياسي الجبـار في إمريكـا حيـث تحقق القـوة والسيـادة والمال كل غـايـات الحياة ومـا وراء ذلـك . ويظل الضعيـف

والأجير (المستعبد) خارجياً وهامشياً . والخطاب الإعلامي الأمريكي المعاصر هو خطاب الرجل القوي ، خطاب ذكوري في غالبه وأبيض في وجهه الأكثر فعلاً ونفاذاً . وهذا هو الصوت الفاعل والمقرر ، إنها فلسفة أفلاطون في صورة جديدة ، حيث تتم إزاحة العبيد والنساء والضعفاء وتتخصص غايات النظام للسادة والأقوياء . يحدث هذا في أهم دولة ديمقراطية معاصرة ، وتزداد قوة هذا النظام وتتخصص غاياته مع مرور الزمن . حتى لقد صار الآن هو الصوت الأوحد الذي لا تسمع سواه ، وذلك بسبب غياب المعارضة السياسية والاجتماعية وتلاشيها التدريجي حتى صار الوضع يبدو ـ ظاهرياً ـ وكأن المجتمع الأمريكي ــ اليوم ـ على وفاق تام مع ظروفه وسياسات حكومته ومؤسسات الدولة والمجتمع التي احتكرت الفعل واللغة .

كان في الستينيات أنواع من الإنتفاضات والتجمعات الطلابية والعمالية ، وكان لها صوت في الشارع والجامعة . وكانت تمثل بوادر للغة أخرى تعترض وتنتقد وتفصح عن غضبها . ولكن هذا الوجه (الآخر) المعارض مالبث أن آل إلى ضعف ووهنٍ أفضى به أخيراً إلى الانكسار والتلاشي ، وتلعثم صوت اللغة الأخرى ثم سكت أخيراً سكوتاً سمح للغة الأقوياء بأن تتسيد وتسيطر على كل وسائل الاتصال ومنافذ الاستقبال .

وصاحب هذا أو تسبب فيه ـ تراجع طلاب الجامعات عن الإنشغال بهموم العالم ، وتركز همهم على مصائرهم الذاتية وعلى مستقبلهم المعيشي ، ولم يعد لديهم مجال للتفكير بغير أنفسهم وحوائجهم .

هذا الانكماش الداخلي على الذات يقابله احتفال ضخم في السياسة

الخارجية ، حيث صارت أمريكا ترى نفسها ـ أو هي فعلاً ــ سيدة الكون ومديرة شؤون العالم .

وهنا نكون أمام وجهين متناقضين لأمريكا : وجه داخلي ينكمش على نفسه وتشغله ذاته عن الآخرين ، ووجه آخر يطلق مطامحه الخارجية ليفرد سلطانه على العالم . وهذان وجهان لا يتطابقان ، وليس في الأفق المتطور ما يشير إلى امكانية تطابقهما . وإن كانت السيادة العالمية تقتضي الاهتمام الداخلي بشؤون العالم فإن هذا ليس في حسبان الأمريكي المعاصر ، ويبدو أن ظروف أمريكا الاقتصادية لا تسمح بشيء من هذا . ومن الوجه الآخر تأتي السياسة الخارجية وهي على عزيمة واصرار عنيد في مواصلة الدفع باتجاه تتويج أمريكا على عرش الامبراطورية العالمية .

هنا تكون أمريكا بين رغبتين متضاربتين وبين تيارين متعاكسين .

هل ورطت أمريكا نفسها في هذا المأزق التاريخي . . . ؟ مابين الرغبات المتضاربة .

في كل التواريخ لم يحدث أن تنازلت امبراطورية عن سلطانها على الآخرين ، وإنما يتم اجبارها واكراهها على ذلك وفي حالة أمريكا ليس هناك في الأفق الآن من هو قادر على إكراه الولايات المتحدة على التخلي عن هيمنتها العالمية .فالعدو ـ الخارجي (القوي) غير موجود ـ الآن ـ والمعارض الداخلي (القوي) ليس له من الصوت ما يكفي لإدارة وجه التمثال من اتجاه خارجي إلى اتجاه داخلي .

هذا مأزق تاريخي وضعت أمريكا نفسها فيه ، ولن تخرج منه إلا إن واجهها هذا الخصم المرتقب داخلياً كان أم خارجياً ليس لكي يخلص

العالم من أمريكا فحسب ولكن ليخلص أمريكا من نفسها وينقذها من سلطانها الذي يفوق قدرتها على حمل الكرة الأرضية على عاتقها .

كانوا في القديم يتصورون الكرة الأرضية محمولة على قرن ثور ، وكلما اهتز الثور اهتـزت الأرض بالزلازل والبراكين . وكذا هي أمـريكا تلعب دور هذا الثور المجازي . ولا ريب أنها حمولة جسيمة وثقيلة . وحاملها لابـد له أن يتعـب ويكل ، وتخفيـف الحمـولة سيصبـح رحمة بالحامـل والمحمول .

٣٠ ـ ٢ لقد تصـور كولومبـوس الكـرة الأرضـية في صـورة شاعـرية (شبقية) ، تصـورها كـرة مستديـرة جدا وعلى جـزء منها يـوجد شيء كحلمـة ثـدي المرأة (تودوروف ٢٢) . هـذه هـي الفـردوس الأرضي الذي وجده ذلك المكتشف المحظوظ ، وظلـت هذه الحملة تدر حليبها على المهاجريـن البيض ، ومازالت ، لـولا أن الثدي تحول إلى رأس ثور وصارت الحلمة قـرناً يحمل الأرض ويحركها مثلما يلعب الـدلفين بالكرة ويلاعب بها إعجاب المتفرجين ، وبـذا تتراجع الحلمة إلى داخل الجسد بعد أن تيبسـت وتصلبت وصارت نـاشفة وجـافة توجـع لامسها وتجرح الفم التـي تمصها ، كشـأن أية سلطـة عالميـة ، والحلمة إذا تيبسـت لا تحرم أطفـال الجيران من الحليـب فحسـب ولكنها ــ أيضـاً ـ لا تملـك حليباً لأبنائها .

٣٠ ـ ٣ هل لهذا ساد شعار (التغيير) على كـل شعار آخر في أثناء الحملة الانتخابية الأمريكية عام ١٩٩٢ . . . ؟

هل أحست أمريكا بتيبس الحلمة وتحولها إلى قرن ثور . . . ؟

إن شعار (التغيير) إذا ماتردد على لسان السـاسة الأمريكيين فـإنه

يعني أن النظام أخذ يدرك مأزقه ، ويكون السؤال اللاحق حينئذٍ هو : هل بإمكان النظام أن يغير نفسه . . . ؟!

في المقالـة القادمة سيكـون حديثنـا عن هذا المصطلـح المثير : سؤال التغيير .

٣١ ـ الوعد الأبيض

٣١ ــ ١ في الانتخابات الأمريكية عام ١٩٩٢ خرج بوش بنسبة ٣٨٪ من أصوات الناخبين ، وحصل كلينتون على ٤٣٪ وروس بيرو على ١٩٪ . وهذا يعني أن ٦٢٪ من الناخبين صوتوا من أجل (التغيير). وهذه نسبة تتجاوب مع الشعار الذي ظل كلينتون يردده أثناء حملته الانتخابية : التغيير ، التغيير .

لقد تردد هذا الشعار في الخطابات الانتخابية وتجاوبت النتائج معه .

ولو وقفنا على هذا المصطلح وتأملنا منه لوجدناه يرتبط دلالياً بشيئين ، أولهما الوعود ، وهي وعود من أجل تحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للشعب الأمريكي ، أي تغيير الراهن وإحلال الحلم محل الواقع .

والشيء الثاني الذي يرتبط بهذا الشعار هو مرحليته الدلالية ، من حيث إنه يعني تغيير جورج بوش وإحلال كلينتون محله . وكأن الجديد يقول للقديم إذهب أنت لكي أكون أنا . وعند هذه النقطة ينتهي شعار التغيير لأن صاحب هذا الشعار لايمكن أن يغير نفسه ، بعد أن احتل الموقع . وهذا يحيلنا مرة أخرى إلى دلالة الوعود التي يتضمنها شعار التغيير . ويأتي السؤال الجوهري هنا حول الوعد والحلم وعلاقتهما بالواقع والممكن . وحول فكرة التغيير وعما إذا كانت شيئاً قابلاً للتنفيذ أم لا .

وفي تاريخنا الماثل اليوم نعرف عن أبرز محاولات التغيير السياسي ،

وما آلت إليه . تلك هي بيروسترويكا جورباتشوف الذي أراد أن يغير الراهن التعيس ، وأن يعطي نفسه ونظامه وشعبه وجهاً جديداً من الحلم والوعد والهناءة ، ولكنه انتهى بأن كسر الجرة وساح العسل في التراب ، وضاع كل شيء .

تلك كانت محاولة مطلوبة انتهت نهاية تراجيدية ولذا فإن المرء يسأل سؤالاً محيراً عما إذا كان أي نظام من الأنظمة ـ دكتاتورياً كان أم ديمقراطياً ـ يستطيع حقاً أن يغير نفسه .

إن كنا سنستعين بالتاريخ ليساعدنا على الإجابة فإن التاريخ يرفع يده معلناً أنه لم يشهد قط ولم ير أحداً أو نظاماً قد غير نفسه فعلاً . والتاريخ يعرف أن الأنظمة تخلق لنفسها سلطة نافذة على الأفراد ، وتخلق لنفسها أيضاً أنظمة من المناعة الداخلية والمقاومة الذاتية ضد أي تغيير جذري فيها . وهي إما أن تحمي نفسها ، كما هو حاصل دائماً ، أو أن تنهار وتتهشم كما حصل للاتحاد السوفياتي الذي عجز عن التعامل مع البيروسترويكا فلم يستطع استيعابها ولم يتمكن من مقاومتها فانهار النظام ، ولم يحدث التغيير وإنما حدث انقلاب نسف كل ما حوله ونقل التاريخ من حال إلى حال .

وبما أن النظام ليس مؤهلاً لأن يغير نفسه ، فإن ما نراه من دعوات للتغيير في أمريكا لا تعدو أن تكون وعداً جميلاً وحلماً أبيض ، مايلبث أن يذوب مثلما يذوب الجليد على حرارة الشمس ويختلط في وسخ الشوارع فيصبح الأبيض ملوثاً وعفناً يعيق السائرين ويلطخ ملابسهم .هكذا تتحول الوعود إلى غصص ويتحول جمال اللغة وبلاغيات الخطابة إلى خيبة أمل وإلى مزيد من الإحباط والغضب .

٣١ ـ ٢ إن قاعدة التغيير المطروحة في أمريكا ضيقة جداً ومجالها محدود ومحصور . إنها دعوة لتغيير داخلي جزئي ، ولم تلتفت إلى المحيط الإنساني الذي تسبح فيه أمريكا . إنها محاولة لإحداث تغييرات في العضو (الجزء) مع إهمال تام للجسد الذي ينتمي إليه هذا العضو . ولقد يكون هذا العضو هو القلب النابض أو المخ المدبر ، إلا أن القلب والمخ لا يعيشان بسلامة وهناء إذا كان الجسد متهالكاً .

إن أمريكا اليوم هي قلب العالم ومخه ، ولكن هذا العالم مريض وكسيح ومتهالك . ولن يتسنى إصلاح العضو وتغيير راهنه الجاف إلى حلم بديع ما دام أن الجسد في حالة مرض عضال .

إن دعوة التغيير الأمريكية دعوة داخلية شديدة الخصوصية ، وتهمل المحيط العالمي الذي يحرك موجات التاريخ والمعاش في كافة بقع المعمورة . ومادامت أمريكا تهمل هذا المحيط (هذا الجسد) فإن تغيرها سيظل خطاباً انتخابياً يمثل الوعود/ الوعود ، ويمثل تغيير المكين دون المكان ، ويقوم على تغيير المصطلح دون المفهوم . ولذا فإن الذي حدث بعد انتخابات ١٩٩٢ هو أن التغيير لم يلامس سوى الوجوه السياسية ، والمصطلحات الإعلامية ، وظلت النظرية هي إياها . وامبراطورية اللغة لما تزل تقول وتفكر وتفعل بالطريقة ذاتها والأهداف ذاتها سواء حملت توقيع جورج بوش أم بيل كلينتون .

إن العالم بمحيطه وسياقاته مثل التاريخ بتداخلاته ، وكلاهما يقوم على بنية سردية ذات حبكة متلاحمة لها مدخل وعقدة ونتيجة ، مثل الجملة اللغوية تتكون دلالاتها من علاقات المفردات واتحادها في سياق يتآلف أو يتضاد كي يكون له معنى دال وقيمة صوتية .

إنه وحدة متكاملة ـ من التآلف أو من الصراع ـ ولا يمكن عزل بقعة جغرافية أو تاريخية عن سائر مفردات هذه الجملة الكبيرة . لن يكون من الممكن لهذه البقعة (المفردة) المعزولة أن تعيش منسية أو ناسية محيطها .

هل يمكن عزل الموجة عن بحرها ، هل يمكن تنظيف الموجة في بحر ملوث . . ؟ .

هنا نجد إمريكا الديمقراطية داخلياً والدكتاتورية خارجياً تسعى إلى تنظيف (الموجة) وترك البحر ، وإخراج المفردة من جملتها وكأنها تكسر الدلالة ، وتحطم الحبكة فتخل بالنظام السردي الذي يقوم عليه العالم والتاريخ .

٣١ ـ ٣ إذا أرادت أمريكا التغيير حقاً فلتغير من علاقاتها مع العالم من حولها وليس من الداخل فحسب . إن العالم مثل أمواج في بحر يؤثر بعضها على بعض مهما تباعدت . ولم تعد الحدود الفاصلة ممكنة الآن ومادامت أمراض الإيدز والحمى الألمانية تترحل عبر الأرض والبحار فإن الأمراض السياسية والاجتماعية والاقتصادية تترحل عابرة المسافات نفسها أيضاً . وتحصين الواحد يكون بتطعيم الجميع . ولن يكون بيد أمريكا أن تنفرد عن العالم بخيره وشره ، مثلما أن العالم لن يسلم من أمريكا بخيرها وشرها .

٣٢ ـ في عين الآخر

٣٢ ـ ١ إن الخطورة التي يواجهها أي كاتب يتصدى لنقد الديمقراطية هي أن يظهر وكأنه يزكي الأنظمة الدكتاتورية . وتبرز هذه الخطورة حينما يرى المرء أناساً يبتهجون لسماع أي نقد إلى الغرب وإلى الليبرالية وإلى الديمقراطية ، وترى هؤلاء يجيرون هذا النقد بوصفه خطاباً يكشف عن عيوب الديمقراطية من أجل تشويهها وتقبيحها والتنفير منها .

والحق أن المكتسب الديمقراطي وما صاحبه من مكتسب حضاري ، علمي وثقافي ، لهو شيء لا يمكن لأي مخلوق محب للإنسانية ولرسالة البشر في الكون ، التي هي رسالة عمران لا إفساد وهي خلافة أسندها الله إلى ذرية آدم ، لا يمكن لمن هذا يقنيه إلا أن يكبر هذا المنجز الحضاري الإنساني الجليل . ومن هنا يكون النقد واجباً معرفياً وأخلاقياً منذ أن كان المنجز فعلاً انسانياً ينطوي على معرفة وعلى أخلاق .

وأمريكا التي تسنى لها في زمننا هذا أن تكون زعيمة العالم وحلمة الثدي المدرار ، ليست سوى الصفحة الكونية التي يستطيع أي قلم أن يجري على سطورها ، فيقرأ ويكتب ويرى كل ما يمكن لبشر أن يراه . إنها كتاب مفتوح ، وسطور ساطعة قابلة للفهم مثلما هي قابلة لسوء الفهم ، وقابلة للمحاكاة والاحتذاء مثلما أنها مفتوحة للنقد والملاحظة .

ولقد اندمجت التجربة الأمريكية مع كل شعوب المعمورة ، حتى لقد كان الناس في الستينيات يشاهدون رجلاً أمريكياً يمشي لأول مرة على

سطح القمر ولم يكن أحد ينظر إليه بـوصفه فلان الأمريكي وإنما نظروا نحوه بها أنـه أحد بني آدم ، بـوصفه بشراً ، إنسانـاً يحقق حلماً شاعـرياً حلم به الشعراء والفنانون والعشاق في كل الثقافات البشرية ، وساهمت أحلام هذه الثقافات بإيصـال نيل آرمسترونج إلى القمر ، مثلما ساهمت باختراع جهـاز التلفاز الذي ربـط عيون الناس بقدم الـرجل وحركـاته خارج الجاذبية وفوق أرض المجاز والحلم والشعر .

هذه أمريكا في عيون غير الأمريكيين .

هذه واحدة من صورها ووجوهها .

ولها صور اخرى ووجوه أخر .

٣٢ ـ ٢ تساءل أوكتا فيو باث مرة عن أحد الوجوه الأخرى لأمريكا وقال :

هل أمريكا تدفع العالم إلى خراب . . ؟ (ضد أمريكا ص ٦٤) .

وبغض النظر عن السياق الذي ورد فيـه هذا التساؤل ، فإن المتفرج الناقد يجد أسبابـاً كثيرة لمثل هذا التخوف الذي أفصح عنـه هذا الروائي الأمريكي (الجنوبي) .

إن معضـلات الغرب الاجتماعيـة تحطـم صـورته كنمـوذج حضـاري مـؤثر . ولسوف تفرح الثقافات الشموليـة التي عانت كثيراً من النموذج الغربي وكانت ترى نفسها مهددة بالتلاشي التدريجي نتيجة لتأثير الغرب على النخـب المثقفة فيهـا ، سوف تفـرح هـذه الثقافـات ، وهي تـرى الغرب ـ اليوم ـ يعاني من ويلات داخلية طاحنة . ولسوف تسعى هذه الثقافـات الشموليـة إلى حماية نفسها مـن خلال افصـاحها عـن الشماتة

بالغرب العنصري المتأزم اقتصادياً وأخلاقياً . وبذا سيتم إظهار الغرب بوصفه نموذجاً غير قابل للاحتذاء . ولذا فإن قضايا المرأة والأقليات والحريات ستكون من المسائل التي لن يعلو صوتها كثيراً لأن القدوة غير صالحة .

ولا شك أن العالم كله يتحد أمام المنجز الحضاري . مثلما اتحدوا باحتفالهم بمشي رجل من الناس على سطح القمر . لقد وحدهم الفرح وكسر حواجز القوميات والخصوصيات . وهذا فرح لا يساويه إلا الحزن الذي خيم على العيون نفسها حينما شاهدوا أسرة تركية تحترق بنيران النازيين الجدد في ألمانيا . وحينما شاهدوا قبل ذلك رودني كنج ذلك الأسود الأعزل بضربه رجال الأمن ، رجال بيض يلبسون لباساً رسمياً ويطلقون هراواتهم (البيضاء) على الجسد الممدد على الأرض (السوداء) . هنا حزن يعادل ذلك الفرح . لقد خرج العالم لنيل آرمسترونج ولم يشعروا أنه أبيض ، وحزنوا للأتراك المحترقين ولرودني كنج لأن النار في ألمانيا والهراوات في لوس انجليس كانت تقول إن اللون والعرق والدين هي سبب النار والهراوة .

إن منجزاً حضارياً جليلاً يشعل وحدة الفرح ، مثلما إن تكسر القيم والأخلاقيات تشعل الحزن .

وهنا تأتي معضلة النموذج الغربي اليوم .

إنه نموذج اختار أن يعيش برجل واحدة على أن يموت برجلين .

٣٢ ـ ٣ حينما يتمعن المرء بهذه الصورة ذات الوجهين المتناقضين ، الوجه المفرح ، والوجه المحزن ، يعود إلى ذاكرته القريبة جداً ويبحث

عن شعار (النظام العالمي الجديد) ، فإنه لن يستغرب إذا ما أدرك أن هذا الشعار قد اختفى الأن من الخطاب السياسي الأمريكي .

إنـه شعار لا يصـف حال العـالم ولا يصورهـا ، وهو شعـار عاجـز وقاصر . إنه عاجز لأن شاشات التلفاز وعناوين الصحف تتحدث عن عالم مكفهـر مضطرب متصارع في دواخله ومـع ما بين الجيران . كما أن الشـاشـات نفسهـا والصحـف ذاتها تخبرنا عـن دور صـامـت متراجــع لأمريكا ، ومـن هنا فإن الشعار لا يستطيـع مواجهة هذه الصـورة التي يشاهدها كل البشر في كل ليلة ومـع مطلع كل فجر . إنه شعار يعجز عن اقناع أحد بوجود عالم جديد ، كما أنه شعار عاجز عن إحداث أي نظـام كوني يحفـظ الفـواصل البشريـة والأخـلاقية فـوق هـذا الكوكـب المضطرب .

هنا يأتي السـؤال الذي اطلقه اكتا فيـو باث ليتولد عنـه سؤال حتمي سيلحق به ويتواصـل معه ، وهو ماذا تفعل أمريكـا بالعالم . . ؟ وماذا تفعل بنفسها . . ؟

يبدو ــ إذن ـ أن أمريكا محتـاجة للعالم كـي ينقذها من نفسهـا وكي يحررها من سلطـة خطابها الامبراطوري المهيمن . وبذا يكـون النقد هو الوصفة الطبية التي يحتاجها هذا الجسد المتأزم .

٣٣ ـ نهاية الأسئلة . . !

٣٣ ــ ١ هــذا رجــل فــوق الأربعين ودون الخمسين دخــل إلى الكـونجرس ممثلاً إحـدى مـدن ولاية مينـاسـوتـا ، دخل هـذا المبنـى الحكومي بمثالية عالية ، وخرج بواقعية مرة .

عمـل اثنتـا عشر سنـة في الكونجـرس مـن عـام ١٩٨٢ وكـان أول ديمقراطي يدخل هذا المبنى عن ولاية ميناسوتا منذ تسعين عاماً .

متزوج ولـه أربعة أطفـال ، وأعلن استقـالته التطـوعية في أغسطـس ١٩٩٣ ، قبل نهاية مدته بسبعة عشر شهراً .

خرج لأنـه اكتشف أخيراً أن الكونجـرس ليس مصمماً للعمـل ، إنه مسرح خطابـة وجدال وأكاديميات . هكـذا هي صورة الكـونجرس في ذهنه بعد اثنتا عشر سنة من التجربة والمحاولة .

لقـد قـرر الخروج والعودة إلى ولايتـه ليربي أطفـالـه ، كأي مـواطـن صادق ، واكتفى من السياسة بالإياب وخيبة الأمل .

هذه صورة ، ويقابلها صـورة أخـرى تبعـث حزناً مماثلاً ، وهي عن (نـاسا) وكـالة الفضـاء الأمـريكية ، هـذه الـوكالـة الرائدة علميـاً في اكتشافاتها وانجـازاتها . خرج أحد رجالاتها في التلفـزيون وراح يتحدث بحزن مفـرط عن هذه الـوكالة وقـال : إن نـاسـا مشلولة ذهنيـاً ونفسياً بسبب إخفاقـاتها ، والخوف من الفشل صار يقيد كـل حركاتها . مثلما أنها صارت تعاني من عوز مالي شديد .

إن الإخفاقات تعمل اليوم في أمريكـا عملاً يفوق أعمال كل الجيوش الممكنة تاريخياً وكل الأعداء المحتملين . ولم تفد (الوعود/ الوعود) بكل بلاغياتها في معالجة مفعول أو (مفعـولات) الإخفاق والخيبات المتوالية . وهذا هو الداء العضال الذي يدخـل في جسد النظام ويفتك فيه من جهة ، ويجعله عاجزاً عن التغيير الجذري من جهة ثانية .

وتشهد الساحـة الداخلية في أمريكا مشـاهد متعاقبة مـن الإخفاقات الاقتصاديـة والتعليمية والصحيـة والأمنية ومعها صـارت تظهر النـزعات العرقية والعنصرية والثقـافات الجزئية والتوترات الفرديـة والطائفية . ولم يعـد هناك شعـور قوي عنـد أية فئـة من الفئـات ، والجميع يصفـون أنفسهـم بـأنهم أصبحـوا أقليـة مضطهـدة، حتـى جماعــات البيـض المتطرفين، الذيـن صاروا يعلنون أن الفئات الاجتماعية كـالسود وغيرهم قد حـاصروا عليهم الفـرص وضيقوهـا حتى صـار الأبيض معتعـلاً في أرضه وعـاطلاً عـن العمل في وطنـه ـ حسـب دعواهـم ـ وصـار هؤلاء البيض يطالبون بحقوق مزعومة ويطالبون بطرد السود إلى أفريقيا .

إن كان الأمر قد بلغ بفئات مـن البيض لأن تعتقد بأنها ضحية وأنها مضطهدة ، فما بالـك بالأقليات المنتشرة في أمريكا ، ومـاذا ستقول عن نفسها .

هذا وضع يجعـل الكل يشعرون بالاضطهاد والإحبـاط . وهو شعور يفضي إلى شلل اجتماعي يشبه حالة (ناسا) المشلولة بإخفاقاتها . وهو وضع لا يسمح باستمرار حـالة الإبداع في المجتمع ، كما أنه يفضي إلى تفكك داخلي يشهده الملاحـظ بنشوء الثقافات الجزئيـة وعلو صوتها على ثقافة الجماعة .

٣٣ ـ ٢ وعلى الصفحة الأخرى من الحكاية يـأتي فوكوياما ليعلن في كتابه (نهاية التاريخ) عـن انتهاء الأسئلة الكبرى في الفكر السياسي ، حيث تأتي الـديمقراطية الليبرالية بوصفها الجواب الكـامل والنهائي على هذا السـؤال البشري العريـق حول الحرية والعـدالة ونظـام الحياة . إنها قمة الهرم البشري ولا قمة فوقها ـ وهي غاية المطاف ونهاية السؤال .

هذا ما يراه فوكوياما في مقابل ما رآه النائب الأمريكي من ميناسوتا، حيث وصف هذه القمة بأنها مسرح خطابة وجدال وأكاديميات ، وأنها ليست مكاناً للعمل (للفعل) .

وبينهما يأتي الشارع الأمـريكي ليطرح الأسئلة تلـو الأسئلة ، وليقول إن العامل الاقتصـادي أقوى من العامل الخطابي والفلسفـي إذا ما وزنا فاعلية أي نظام (ديمقـراطياً كان أم دكتاتورياً) . وتبـدو الديمقراطية الليبرالية بحـاجة ماسـة إلى اقتصاد قوي يحميهـا ويقوي آلياتها ويـرفع صوتها ، وكل اهتزاز اقتصادي يوازيـه وينتج عنه اهتزاز اجتماعي . هذا ما تقـوله لغة الشـارع ومجازاته . ولم تظهـر العنصرية السافـرة في شوارع الغرب (ألمانيا وفرنسا وبريطانيا ، وحركة البيض المتطرفين في أمريكا) إلا مع ظهور الأرقام العالية مـن البطالة والمرضى والمدمنين . ولم تفد في إخفـائها أو تحييـدهـا أي لغة مـن المعجـم الديمقـراطـي ، أو الدليـل الليبرالي .

وكم صارت الـديمقراطية اليوم وكأنها هي نظـام تجريدي ، يقول ولا يفعل ، يعد ولا يحقـق ، يحاول إصدار القرارات وتمنعه آلياتـه التي هي من صنائعه ومبتكراته ، تمنعه عن اتخاذ القرار .

في كثير من الأمور تكبل الديمقراطية يديها بأقلامها وتبدو وكأنها بلا

إرادة وبلا قرار ، وتظهر الديمقراطيـة وكأنها هي ضحية ديمقراطيتها . وصار وجهها العاجز أبرز من وجهها الفاعل والقادر .

هذا مـأزق يقع فيه النظـام نتيجة لإخفاقاتـه المتوالية . وستظـل هذه الحالة مادامت أمـريكا تصر على زعامة العالم إصراراً دكتاتـورياً قسرياً ، وتدفـع ثمن هـذا الإصرار لأنها رضيت بهذا النظام المنـافق الـذي يكيل لنفسه بمكيال ويكيل للعالم خارجه بمكيال آخر . وهذه صفة المطففين وسمة النظام المنافق .

ولـو رضيت أمـريكـا بما في يدهـا مـن فردوس أرضي ، ولم تشغلهـا حكومـة العالم لأعطت للتـاريخ مثالاً خالـداً للنظام الراقـي ، الذي لا ينهي أسئلة التاريخ كما يتوهم فوكويـاما ، ولكنه يخلق للعالم كله مزيداً مـن الأسئلة المبـدعـة والتفكير الابتكـاري ، بدلاً مـن نـاسـا المشلولـة بإخفـاقاتها ، وبدلاً عن النـائب الذي عجز عن إصـلاح البيت الكبير فهرع عـائداً إلى بيته الصغير ليتداركـه قبل تساقـط الحجارة على رؤوس أطفاله .

إن العالم بحـاجة إلى (نظـام عالمي جـديد) يقـدم نموذجـاً لمجتمع بشري سعيد . هـذا ما يحتاجه النـاس والتاريخ . أما المجتمـع المخفق والمتوتر فقـد رأينا منه ومن أمثالـه ماملأ صفحات التاريـخ وأدبيات كل الثقافات وذاكرات كل الشعوب .

٣٤ ـ الأب الجـديـد

٣٤ ـ١ يتردد ـ اليوم ـ في أمريكـا نداءات للعودة إلى نظام (العائلة)، ومـا تمثله العـائلة مـن اخلاقيـات وقيم . وهـذه النداءات تنطـوي على خطاب بكائي يبكي على زمن العائلة الذي انفرط وانفرطت معه أخلاق الناس وقيم المعاملة . وانعكس ذلـك على الشارع الأمريكي الذي صار مسرحاً يومياً للجريمة والشذوذ والتشرد .

وتقـوم هـذه النـداءات على الـدعـوة المتكـررة على ألسنـة الـزعماء والإعـلاميين ، حتى لقـد كانـت شعاراً انتخـابياً لـدى كافـة المرشحين لمنصب الرئاسة عام ١٩٩٢

والسؤال الآن هو :

هل تسطيـع أمريكـا ـ فعلاً ـ أن تعود إلى نظام العـائلة ، بـوصف العائلة وحدة اجتماعية فاعلة ومؤثرة . . ؟!

إن الوضـع الذي وصل إليـه نظام الحيـاة بنموذجه الـذي يعتمد على مفهوم (السوق) لا يسمح أبداً بعودة الحياة إلى (الوحدة العائلية) .

إن الانتقال إلى نظام السوق قام فعلاً على أنقاض نظام العائلة ، ولا تسمـح شروط هـذا النظام الجديـد بعـودة ذلـك القـديم . ولكـل مـن النظامين أخلاقه وقيمه وشروطه التي يختلف فيهما الواحد عن الآخر .

ولقـد كـان المجتمـع يقـوم على العـائلـة والأسرة ، بـوصفهما وحـدة اقتصادية يعمـل كافـة الأفـراد فيهـا في مزرعـة ، أو متجـر أو مشروع

صغير . وكان الأولاد يعتمدون على أهلهم ليس بالتربية فحسب ، وإنما أيضاً بالمعاش والوظيفة وتأسيس رأس المال الرمزي والمادي لهم . ومن هنا كانت الأسرة أساساً ضرورياً يتماسك من داخله بفعل الاحتياج والفائدة ، ولذا يتمسك الأطراف بهذه الوحدة ، ويتخلقون بأخلاقها ويسلكون ضمن سلوكياتها .

ثم جاءت البرجوازية ـ أولاً ـ لتنشأ معها دوافع الفردية والانجاز الذاتي ، وأعقب ذلك قيام (السوق) الذي أدخل أخلاقاً جديدة ، تقوم على المنافسة ، بدلاً من التضحيات العائلية ، التي صارت أمراً تقليدياً ورومانسياً ومثاليات لا تزيد الرصيد ولا ترفع رأس المال . ومع المنافسة جاء الحس بضرورة التكتم والتربص واستغلال الفرص ، وبراعة الحيلة والاقتناص . ومعها برزت الأنانية والذاتية المطلقة . ولقد صارت براعة الحيلة تبرر أي مسلك لأنها تحقق الغاية ، وتضمن الكسب . وهذه أمور لا تساعد فيها الأخلاق القديمة التي كانت تنتجها العائلة وتحرص عليها . إن غاية السوق وسببه هي الكسب . بينما تقوم العائلة على التضحية . وهاتان غايتان متعارضتان .

لقد حطم السوق وحدة العائلة ، وتحول أفراد هذه الوحدة إلى أجزاء يعملون لمصلحة الأب الجديد الذي هو (السوق) .

٣٤ ـ ٢ يأتي الاقتصاد على أنه نظام لغوي ، إنه لغة تتكلم عن الناس وباسمهم ، وتنظمهم في جملة نحوية وتدل حسب معجم محدد يفسرها ويوجه طرائق فهمها واستيعابها حسب سياقاته ومجازاته الخاصة . واقتصاد السوق في مقابل اقتصاد العائلة هو نقلة نوعية من نظام لغوي إلى نظام آخر مختلف ، ومعه تغيرت العلاقات والدلالات .

لقد تهشمت الوحدة المجتمعية المرموز لها بالعائلة، تكسرت الجملة، ومات الأب ـ وحل محله زوج الأم ، الذي احتكر الأم والأولاد واغراهم بـالمال والجاه فأخـرجهم مـن دفء البيـت وحضن الـوالدة ، إلى وهـج السـوق ـ وبـريق المال وصراخ المضـاربات . ولم يعـد الأولاد يتذكـرون الطريق إلى البيت القديم . لقد شغلهم عمهم/ السوق وأغراهم بطاعته والانصياع إليه ، وقبول أخلاقه وشروطه ، فجعلوه أباً وأُماً وبيتاً ومعجماً تربو ياً وثقافياً ونفسياً .

تقـوم لغـة السـوق على الشطـر العقلي (النفعـي) وتلغـي الجانـب الشخصي والإنساني في علاقات التعامل والتبادل . وتجعل مصلحة البيع والشراء هي الجوهر والغاية .

كيـف أذن تتسنـى العـودة إلى نظـام مخالـف يقـوم على الإنسـاني والشخصي ، ويعتمد التضحية . . ؟ .

لا يمكن لهذا أن يعود إلا بإلغاء الآخر ، وهذا افتراض لا سبيل إلى تحققه في هذا المآل الذي آلت إليه الأنظمة الغربية .

إن الليبراليـة الديمقـراطيـة مرتبطـة ارتبـاطاً عضـوياً باقتصـاديات السـوق ، ولما تزل أمـريكا تدعو غيرها من الـدول وتشترط عليهم قبول اقتصاديات السوق واعتمادها كأساس فلسفي وأساس تطبيقي .

ولقد نتـج عن فلسفـة السوق أن صـارت الحرية قيمـة نسبية يحوزهـا ويحظى بها من فاز ونجح في تعاملاته مع السوق/ الأب الجديد . ويحرم منها وتفوت عليه كـل من فاتته فرص هذا السـوق . وبذا صار الناس أمام حـالٍ جديـدة ـ فهـم كما يلاحـظ بودريـلار لم يعودوا مـواطنين ولم يعودوا بروليتاريا وإنما صاروا ــ فحسب ـ مستهلكين (بودريلار ٦) ،

إنهم يستهلكون ما يحصلون عليه ، ويزيد الاستهلاك إلى مزيد ومزيد من الاستهلاك واللهاث وراء ذلك .

٣٤ ـ ٣ في الغرب ومع اقتصاديات السوق هناك مؤشرات على نمو اقتصادي ضارب . ولكن هل هذا النمو المالي يؤدي إلى رفاه انساني . . ؟

ومما يلاحظ أن اقتصاديات السوق الغربي لم تعد تخلق وظائف ، وإن زيادة الانتاج (والاستهلاك) تعادلها تماماً زيادة البطالة (بودريلار) .

ويصاحب هذا التعارض الخطير بين النمو من جهة والتهميش من جهة ثانية ، يصاحبه ظاهرة أخرى يسميها اوكتا فيو باث بظاهرة (التلذذ) . وهي ذات طبيعة تواكلية ، إنها ضرب من الخضوع ليس بسبب الحكمة ، وإنما بسبب الإستسلام (وهي في أحد وجوهها المتطرفة تصبح نوعاً من النهم بحيث لا ترعوي عن طلب المزيد والمزيد ، وفي وجهها الآخر تكون تركاً وتنازلاً وجبناً في مواجهة الألم والموت وبالرغم من ممارسة الرياضة والتمرينات الصحية ، فإن موقف الجماهير الغربية يشتمل على نقص في التوتر الحيوي ، فالناس تعيش حالياً أعماراً أطول لكنها سنوات جوفاء ، فارغة . والتلذذية . . . أصبحت تلذذية الأجهزة والأشباح . إن ربط الجسم بالميكنة قد أدى إلى ميكنة اللذة ، كما أن تقديس الصورة ــ مثل السينما والتلفزيون والإعلانات ـ قد أحدث نوعاً من الاختلاسات التعميمية التي حولت الأجسام إلى ظلال (اكنافيوباث ٢٨) .

تحولت الأجسام ـ ومعها وحدة العائلة ـ إلى ظلال ، والضوء الوحيد الساطع والمرئي هو السوق . وتصبح الدعوة في العودة إلى نظام العائلة مجرد أمنيات عاطفية ، تقوم على حنين رومانسي ، وتقوم على افتراض

ضعيف جداً وهو أن تعود أخلاق العائلة مع الاحتفاظ بأخلاق السوق ، أن يتصف الإنسان بالتضحية والإيثار والعطف من جهة ، وبالأنانية والذاتية والمكسب وبراعة الحيلة من جهة ثانية . وكأنما المطلوب هو أن يكون الإنسان ملاكاً وشيطاناً في الوقت ذاته .

لقد ذهبت أخلاق العائلة مع اقتصاديات العائلة وسيطرت قيم السوق مع سيطرة فلسفة السوق الاقتصادية ولغته الدعائية ، وشروطه في الاستهلاك ومزيد من الاستهلاك الذي من دونه لا يكون السوق .

لقد كانت فكرة إلغاء نظام العائلة مع الاحتفاظ بالمشاعر المرتبطة بهذا النظام فكرة قديمة في الفلسفات الغربية ، وكانت هذه دعوة أفلاطون في جمهوريته (زكريا ١٠٤) . وما يتردد في أمريكا اليوم ليس سوى ترجمة حديثة لمطلب قديم .

ولو تحقق لأمريكا ذلك فسوف تنجز ما عجز عنه أفلاطون ومن جاء من بعده وما أعقبه من تاريخ وثقافات . ولكن . . .

٣٥ ـ نبشـــركم بالحضـــارة

٣٥ ـ ١ « نبشركم بـالحضارة قال الغريـب » وقال : أنا سيد الـوقت جئت لكي أرث الأرض منكم ، فمروا أمامي لأحصيكم جثة جثة فوق سطح البحيرة ، أبشركم بالحضارة قال ،

لتحيا الأناجيل ، قال ،

فمروا . . . . .

فإن هنوداً يموتون خير

لسيدنا في العلى من هنود يعيشون ،

. . . . . .

لكم عالم ولنا عالم

يقول الغريب كلاماً غريباً

ويحفر في الأرض بئراً

ليدفن فيها السماء ،

يقول الغريب كلاماً غريباً ،

[محمود درويش ، أحد عشر كوكباً 44] .

٣٥ ـ ٢ لا تكتمل قراءة أمريكا إلا بـالوقوف على أهم وأخطر فصل من فصول الكتاب الأمريكي ، وهـو فصل الهنود الحمر . هذا الفصل يمثل الـذاكرة والأصـل والمبتدأ لكـل ما هـو أمريكـي ، ولكل مـا هو حضاري أو أخلاقي في التجربة الأمريكية وفي سجلات الرجل الأبيض

هـذا الذي جـاء مبشراً بـالحضارة البيضـاء ، وبادر إلى تقـديـم هدايـاه ووصاياه للسكـان المحليين ، وكانت هذه الهدايا بمثابـة (عشر بلايا) كما يقول تـودوروف (فتح أمريكا ص ١٤٨) . أولها الجدري وآخـرها العبوديـة ، هذا هـو الثمن الـذي دفعه الـرجل الأبيـض مقابـل أخذه لـلأرض الهنـدية الحمـراء ، ومقـابـل امتـلاكـه للجسد الأحمر والـوجـه الأخضـر ، حتـى ضاقت الأرض بأهلهـا في حين اتسعت للمهاجـرين من كافة أصقاع الغرب الأوربي .

درس في الحضارة وفي الأخلاق لا يقوى عليه سوى رجل أبيض .

٣٥ ــ ٣ يبـدو مـن أول وهلـة أن كـولـومبـوس لم يجد أرضـاً بكـراً فحسب، ولكنه عثر على شعب بكر أيضاً . وكانت الأرض من نصيب البلاط الاسبـاني المجيد ، وكـذلك هي الحال مـع الشعب الـذي صار غنيمة سهلـة بيد الفـاتح الأبيـض . ولكي يسهـل تقسيم الغنيمـة فإن كولومبوس يوزع الهنود إلى أربع فئات هم :

(أ) هنود وثنيون يأكلون لحم البشر .

(ب) هنود مسالمون قابلون للخضوع والاستسلام .

(جـ) هنود ميالون للحرب .

(د) هنود أبرياء .

ويختلف التعامل مع هذه الفئات الأربع ، إذ تجري معاقبة المحاربين بشراسة تبلغ حد إفنائهم إفناءً تاماً . ويتم تحويل الأبرياء إلى مسيحيين (تودوروف ٥٣) .

أما مـاعدا هؤلاء فـإنهم يتحولون إلى عبيـد يتم شحنهم بـالسفن إلى

اسبانيا ، ليكونوا تحت تصرف البلاط ، وقد يجد كولومبوس في هؤلاء الهنود فائدة مادية إذ يقدمهم ثمناً لشاحني السفن الذين يجلبون المؤونة من أوربا وليس لدى كولومبوس من المال مايكفي لسدادهم ، وفي ذلك تقول بعض مذكرات الرحلة : (من الممكن سداد الثمن للشاحنين على هيئة عبيد من آكلي لحوم البشر ، وهم بشر متوحشون ، لكنهم أقوياء البنيان ويتميزون بالجسارة وبحسن الفهم ، ونعتقد أنه من الممكن إذا ما خلصناهم من لا (لا إنسانيتهم) أن يصبحوا أفضل أصناف العبيد ـ تودوروف ٥٣) .

تلك ـ إذن ـ مهمة كولومبوس الحضارية والأخلاقية وذلك بأن يسعى إلى تخليص الهنود من وحشيتهم وإدخالهم إلى حضيرة الإنسانية ، فإذا ما دخلوها يمن عليهم بنعمته الكبرى ويجعلهم عبيداً من أفضل أصناف العبيد .

نحن أمام حضارتين أحداهما وثنية متوحشة تأكل لحوم الأموات من البشر ، وتعيش على أرض فسيحة خضراء غناء تأكل وتشرب بعيداً عن أوروبا وحضارتها .

أما الثانية فإنها مسيحية بيضاء ذات رسالة حضارية مقدسة ، تحب الذهب والنساء والعبيد . وتقابلت هاتان الحضارتان على أرض تتسع لهما معاً وعلى مضمار أخلاقي يتسع لأخلاقياتها كلتيهما . واتسع صدر الأحمر لهؤلاء الطارئين على أرضه ، ولكن الأبيض ضاق ذرعاً بالمتوحش الأحمر ، وبما إن التوحش والوثنية وأكل لحم الأموات من الخطايا التي لايغفرها الأبيض فبإنه راح يعالجها حسب الطريقة التي سمحت له حضارته ومعجم أخلاقه بها . ولعل حادثة مجزرة (كاوناو) في (كوبا)

تدلنـا على شيء من تعـامل هـاتين الحضارتين مـع بعضهما ، وذلك أن الجنود الأسبان توقفوا يوماً لتناول الإفطار في مجرى أحد الأنهار الجافة ، وكان المجرى يغـص بأحجار الصوان وبالغـدران المائية الصغيرة ، وبدا للأسبـان احساس ورغبـة في شحذ سيـوفهم بـأحجار الصـوان ، وكان الهنود قد تجمعوا يتفرجون على هؤلاء الرجال البيض وعلى الخيول التي لم يرو حيوانات مثلها من قبل .

وها هي الحضارة الوثنية المتوحشـة تتفرج مسالمة ومنبهرة على ضيوفها الطارئين .

وبنمو حماس الأسبان ذوي الحضارة المقدسة المباركة ويطربون لصليل السيوف المشحـوذة ، وتعن لأحـدهم فكـرة بيضاء طـريفة ويـرغب في تجريـب سيفه ، وتعـم الفكرة سـائر الجنود فيشرعـون في تمزيق أحشـاء الرجال والنساء من الهنود ويقطعون أعضـاءهم ولا يسلم من ذلك أحد حتى الأطفال والشيـوخ الذين يتساقطـون قطعاً قطعاً من أجـل تجريب السيوف النـاصعة في بيـاضها وفي تحضرهـا ، وتم تقطيـع أجساد كـافة الهنود الـواقفين على ضفاف الوادي وفي ثـوان معدودات لا يبقـى هندي واحد على قيد الحياة حتى سال الدم وتدفق النهر الجاف بالسائل الأحمر (تودوروف ١٥١) .

٣٥ ــ ٤ هنا يعـود مصطلـح (المتـوحش) ومصطلـح (المتحضر) ليكشـف سلطان اللغـة على البشر ، وعلى قـدرة العبارات على تشكيـل العقل الإنساني وتوجيه خياراته ، وما دام الهنود متوحشين فإن أجسادهم وأعـراضهـم وأرضهم تصبـح حقـاً طبيعيـاً للـرجل المتحضر صـاحـب الرسالة المقدسة والسيف الأبيض ، وهذه هي حقوق الحضارة في مقابل المصير المحتوم للوحشي .

هكذا هي البشارة بالحضارة ، هذه اللغة التي لم يتعود عليها الهنود الحمر الذين جربوا كل مفردات معجمهم اللغوي الفطري ، ومن ذلك أن زعيم قبائل الأزتيك في المكسيك حاول مخاطبة الأسبان باللغة التي ظن أنها تردهم بسلام فأرسل إليهم هدايا سخية من الذهب ومن النساء لكي يرضوا بهذه النعم عن محاربة الهنود واحتلال ديارهم (ص ٩٦) .

ولكن هذه الهدايا زادت الرجال البيض إغراء وأشعلت رغبات الطمع في نفوسهم . ومن هنا فإن كل موقف سلمي يبدو من الهنود يرد عليه الأسبان بمزيد من العدوانية . ويظل التقسيم الأخلاقي قائماً بين الثقافتين فهؤلاء البيض متحضرون وأولئك الهنود وحوش . والأرض لن تكون لأصحابها ولكنها ستؤول إلى الغازي الذي يظل متحضراً وذا رسالة ربانية مقدسة ، وهي قداسة لها من الطهارة ما يحميها من دنس الدماء المتدفقة في الأنهار الجافة . إنها دماء قوم متوحشين .

٣٦ ـ الكائن السينمائي

٣٦ ـ ١ كان الهنود الحمر في ذهني عبارة عن كائنات سينمائية ، وكانوا أشكالاً خيالية مسرحية يرمزون إلى ذاكرة مأساوية عن الظلم وهضم الحقوق ، ترتبط حسياً بشاشة السينما ، ومعنوياً بالضمير الإنساني المتعذب دوماً في أسئلته عن معنى التحضر والتطور في العمران البشري ، الذي يقوم على التدمير المتعمد لكل ما هو فطري وطبيعي سواء من البشر الفطريين أم الأرض وبيئتها الفطرية .

وظلت هذه الصورة حية في نفسي على ما فيها من بعد تخييلي حتى شهر يوليو ١٩٩٢ حينما تواجهت وجهاً لوجه ولأول مرة مع ثلاثة هنود حمر في مدينة سياتل بولاية واشنطن ، كانوا رجلاً وفتاتين ، وكانوا بالنسبة لي بمثابة الخيال إذا ما تجسد في وجود حسي أو كأن شاشة السينما تحولت إلى ميدان ينبض بالبشر والحياة والواقعية . وكانوا مثل انفجار مفاجىء في الذاكرة ترى فيه حزنك وجراحك وكل أحاسيس الإنسانية وتجسدات الضمير . كنت أرقب وجوههم وحركاتهم وهم يتكلمون باللغة الانجليزية ويلبسون لباس الحضارة (البيضاء) ، وتبدو صورهم وكأنهم قلوب لا يغلفها جسد أو ربما يكونون كلمات طارت من صفحة كتاب وتعلقت في الهواء فهي تطير وتتحرك وتعبر ، فتقترب من عينيك تارة وتهرب منك بعد ذلك لتعود مرة أخرى ، وأنت تسبح وراءها ببصرك وتسأل نفسك : هل هذه ذاكرتي طارت من رأسي وصارت تلاعب نظراتي وتمتحن فهمي وإدراكي . . . ؟ . ولولا الحياء

لمددت يدي ألامس البشر الذين أمامي لأطمئن على جسديتهم وعلى حضورهم .

رحت أسأل وأسأل وأنا خجل وخائف من كل سؤال خشية أن أتعدى حدود الأدب مع ذاكرة مارس البشر ضدها كل موبقات الحضارة ، وكل تواريخ العنف .

قال لي : لقد منعوني من أن أتحدث لغتي في المدرسة ، وكان المدرس الأبيض يأمرني بغسل فمي أمام الطلاب إذا ما غلطت وتفوهت بكلمة من لغتي الهندية .

ما الذي يخيف الرجل الأبيض من لغة الهنود الحمر . . . ؟ هل لأنها تكشف له عن ذاكرة لا يريد أن يراها . ذاكرة عن أسلافه البيض الأشاوس وعن تاريخهم مع الهنود ؟ يحاول الأبيض نسيان ماضيه وماضي حضارتهم على أرض أمريكا الهندية ، وهذه اللغة تفتح له صفحات ذلك التاريخ ، ولذا لابد من غسلها وتنظيف معابر الخناجر منها . إغسلوا اللغة واغسلوا التاريخ واغسلوا الذاكرة . . . إن استطعتم إلى ذلك سبيلاً .

لقد لبس الهندي ثياب البيض وتكلم لغتهم ، ولبس فوق ذلك حزن التاريخ كله ، وغرس في رأسه ذاكرة لا تغطيها الثياب ولا كل لغات البيض .

٣٦ ـ ٢ كان الهنود الثلاثة يحكون وكنت استمع لا مثل ما يستمع البشر للبشر ، ولكن مثل ما تسمع حلماً ينطق أو ذاكرة تصرخ ، وكنت وكانوا في موج من الحديث والحزن والخوف مما يفعله الإنسان بالإنسان تماماً كأنك ترى قتيلاً ينتفض من تحت دمائه ويلتفت إليك

ليقول لك ما فعل به القاتل . وما كنت أنت قاتلاً ولا شاهداً ولكنك تعلم علم اليقين أن ما تقوله الضحية صحيح وأن المقتول قد سال دمه فعلاً ، وبكل تأكيد فإن المقتول لم يقتل قاتله .

كان هذا يدور بيننا عبر الكلمات السابحة في فضاء الغرفة في حضرة الهنود الحمر وفي حضرة ثقافتهم وتاريخهم ودمائهم .

ولم أشعر قط أن بجانبي رجلاً أبيض ، إنه مرافقي الذي سايرني ثلاثين يوماً بلياليها ولم يك اللون شيئاً يذكر في علاقتي معه . غير أنه ذكرني ونبهني إلى لونه الأبيض حينما استأذن منا للخروج وسأل عن طريق دورة المياه ، وغاب ساعة ثم عاد ليستأذن مرة أخرى بحجة أنه يرغب في تدخين سيجارة في الممر الخارجي . أحسست عند ذلك أن مرافقي رجل أبيض ، وحمدت له لباقة تصرفه إذ رفع عنا الستارة البيضاء وتركنا في حرية ملونة بألوان جلودنا الطبيعية .

وعلمت وقتها أن اللون الأبيض سلطان يحضر إذا شاء ويغيب إذا شاء ، وكل فعل من أفعاله هو كياسة تحسب له ويشكر عليها . أليس هو سليل الحضارة والمدنية . . . ؟ بينما نحن في عداد الهوامش واللواحق. شكراً لمرافقي الذي لم يشعرني ببياضه إلا لكي يغيب عن الجلسة ويرفع عنا الشهادة البيضاء .

٣٦ ـ ٣ راح مضيفي الهندي يحكي لي حكاية حضرها مع جده . حيث ذبح الجد (دباً) ليسد به جوع العائلة . وكان الجد يتحدث مع (الدب) وهو يذكيه ، وهو يسلخه ويقطعه ويقول له : أنت أخونا وشقيقنا فنحن وأنت من أم واحدة ، هي أمنا الأرض . ولذا فإننا لن نهينك وسوف نكرمك ونكرم لحمك الطيب ، ولولا الجوع ما ذبحناك ،

ولسوف تـدخل في أجسـاد أولادنا وتصبح جـزءاً منها تتحـرك وتتنفس معها . إننا نحبك ونتألم لـك ، ولسوف نحافظ على أولادك ونصونهم ، أنت أيها الدب الطيب الحبيب يا ابـن أمنا الأرض ، ويا أخانا المختلط فينا والـداخل في أجسامنـا . لسنا نقتلك ولكننا نـأكلك لكي تحيـا فينا وتقتل جوعنا .

يقول هـذا ويؤكـد لي أن الهندي لا يعتـدي ولا يجور لأنه يـرى لكل شيء روحاً ولـذا حافظ على البيئة سليمـة نقية ولم ينتهك حـرمة الأرض وكرامتها ، وكل كائن إنما هو أخ وأخت .

أما الأبيض . . فانظر فعله بـالأرض وكيف انتهك عرضها واغتصب عذريتها لقـد فعل بالأرض مثلما فعل بـالهنود الحمر . لقد جعـل البيئة تـرطن بلغـة المال والسـلاح ، وكـانت مـن قبـل لا تعـرف سوى لغـة العصافير وقبلات الغيوم وتراشقات المطر .

قال ذلـك وأنا أودعه بيد تعـرف ملمس المكلوم وتعرف طـريقها إلى الجراح المخفية تحت الجلد وتحت الملابس الحضارية .

ودعت يده يدي وخرجت كـي يستلمني مرافقي الذي صرت أعرف أنه أبيض ، وصرت أرى أن مواعيدنا القادمة هي مواعيد بيضاء ، وكل شيء في هـذا الكـون هـو أخ وأخـت ـ كما قـال صـاحبـي الهنـدي ، وأمضيت بـاقي فترتي مع أخي الـرجل الأبيض . إلى أن حانـت عودتي وتـوادعنا في مطـار نيويـورك يـوم ١٩٩٢/٨/١١ فذهبـت عائداً نحـو الشرق ، وذهـب مـرافقـي الأبيـض نحــو غـرب الغـرب ، وانتهـت المصافحة لتبدأ الذاكرة .

المحتويات

مـــراجــــــــع

١ ـ العربية :

ابن حزم : طوق الحمامة . تحقيق الطـاهر أحمد مكي . دار المعارف . القاهرة ١٩٧٧ .

أفلاطون : دراسة لجمهورية أفلاطـون بقلم فؤاد زكريا . دار الكتاب العربي . القاهرة ١٩٦٧ .

إيكو/ امبرتـوايكو : اسم الوردة . ت أحمد الصميعـي . دار التركي للنشر . تونس ١٩٩١ .

باث/ اوكتافيوبات : زمن الغيوم . ت حامد أبو أحمد . دار الحرية . القاهرة ١٩٨٩ .

بـريخت/ برتـولد بـريخت : قصـائد . ت أحمد حسان دار الفـارابي . بيروت ١٩٨٦ .

تودوروف : فتـح أمريكا ، مسألـة الآخر . ت بشير السباعـي . سينا للنشر القاهرة ١٩٩٢ .

جارودي : في سبيل ارتقاء المرأة . دار الآداب بيروت ١٩٨٢ .

الخطيبي/ عبد الكبير الخطيبي : النقد المزدوج . دار العودة . بيروت د.ت .

درويش/ محمـود درويش : أحد عشر كوكبـاً . دار توبقال . الـدار البيضاء ١٩٩٢ .

دنقل/ أمل دنقل : الأعمال الكاملة . مكتبة مدبولي . القاهرة . د.ت .

سحارة والظـاهر : ضد أمـريكا . المؤسسـة العربية للـدراسات والنشر بيروت ١٩٨٩ .

الغذامي/ عبـد الله محمد الغذامي : الخطيئـة والتفكير . دار سعاد الصباح . القاهرة/ الكويت ١٩٩٣ .

القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد . بيروت ١٩٦٠ .

كلينتون/ بيل كلينتون وآل جور : رؤية لتغيير أمريكا ترجمة ونشر مركز الأهرام . مؤسسة الأهرام . القاهرة ١٩٩٢ .

ماركيز : كيف تكتب رواية . ت صالح علماني . الأهالي . دمشق ١٩٨٨ .

ميشو/ هنري ميشو : مختارات من شعره . ت : سامي مهدي . دار المأمون . بغداد ١٩٨٩ .

٢ ـ الانجليزية :

Baudrillard, J : Selected writings, (ed. qy m. Poster). Stanford university press. Stanford. California. 1988.

Fukuyama, F : The End of history and the last man. Penguin Books. London 1992.

Lorca, F.G : The Selected Poems, ed. qy Francisco Lorca and D. Allen, A new Directions Paperbook, New York 1961.

Said, Edward W. : Orientalism, Pantheon, New York 1978.

Said, Edward W. : Culture and Imperialism Chatto and Windus, London 1993.

Chomsky, Noam, Necessary Illusions, South End press, Boston, MA 1989.

Chomsky, Noam, Media Control, the Spectacular achievements of propaganda, open Magazine Pamphlet Series # 10, Westfield, NJ 1992.

كتب أخرى للمؤلف

١ ـ الخطيئة والتفكير ـ من البنيوية إلى التشريحية ـ دار سعاد الصباح (الطبعة الثالثة) . القاهرة/ الكويت ١٩٩٣ .

٢ ـ تشريح النص ـ مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة . دار الطليعة . بيروت ١٩٨٧ .

٣ ـ الصوت القديم الجديد ـ بحث في الجذور العربية لموسيقى الشعر الحديث ـ دار الأرض . الطبعة الثانية الرياض ١٩٩١ .

٤ ـ الموقف من الحداثة . الرياض ١٩٩٢ (الطبعة الثانية) .

٥ ـ الكتابة ضد الكتابة . دار الآداب . بيروت ١٩٩١ .

٦ ـ ثقافة الأسئلة ـ مقالات في النقد والنظرية . دار سعاد الصباح (الطبعة الثانية) ١٩٩٣ .

٧ ـ القصيدة والنص المضاد . المركز الثقافي العربي . بيروت/ الدار البيضاء ١٩٩٤ .

٨ ـ المشاكلة والاختلاف (بحث في الشبيه المختلف ـ المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء ١٩٩٤ .

٩ ـ المرأة واللغة ـ المركز الثقافي العربي . بيروت ١٩٩٥

١٠ ـ ثقافة الوهم : مقاربات حول المرأة واللغة والجسد . المركز الثقافي العربي . بيروت ١٩٩٨

١١ ـ النقد الثقافي : قراءة في الأنساق الثقافية العربية . المركز الثقافي العربي . بيروت ٢٠٠٠

١٢ ـ الثقافة التلفزيونية . معد للنشر .



شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر - جدة




Bibliotheca Alexandrina
0498324